الفصل الرابع عشر

# في ظهور التوحيد وإبطال التقييد

قال رضي الله عنه:

## إِذَا ظَهَرَ الحَقُّ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُهُ

الحق هو الله لا شيء معه، إذا ظهر على العارف بذاته وعموم صفاته ظهوراً يوجب الاضمحلال والتلاشي، فلم يبق في نظره غيره **(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا)** «الاعراف: 143» ولهذا يقال: إذا تلاقى الحادث والقديم تلاشى الحادث وبقي القديم **(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)** «الانبياء: 58» وقد يظهر الله تبارك وتعالى على العارف بكيفية مجهولة في اللفظ معقولة في المعنى، فيطرأ عليه الفناء والاضمحلال والتلاشي، وهو المسمى عندهم بالسحق والمحق.

**صارت جبالي دكا ☆ من هيبة المتجلي**
**ولاح سر خفي ☆ يدريه من كان مثلي**

وقال آخر:

**ظهرت في الكل ليس تخفى ☆ وأنت أخفى من الخفاء**
**في كل شيء أراك حقا ☆ بلا جدال ولا امتراء**

الحق سبحانه وتعالى لا يثبت معه سواه، لأنه مجرد وهم لا وجود له في الحقيقة، إنما هو عند العارفين كعنقاء مغرب تسمع ولا ترى،

ولهذا قال بعضهم: «لو كلفت أن أرى ما سوى الله لم أستطع، وإن كان ولابد تراه كهباء في هواء، فإذا فتشته لم تجده شيئا».

قال شيخنا «البوزيدي» - رضي الله عنه -: كنا في تلاوة القرآن العظيم جماعة بحضرة أستاذنا سيدي «محمد بن قدور» ولما وصلنا قوله تعالى: **(هو الاول والآخر والظاهر والباطن)** «الحديد: 3» قام إنسان من وسطنا وقال: العين التي ترى ما سوى الله حقها أن تعمى، فعند ذلك شرع الفقراء في الذكر، وتركوا التلاوة. ولبعضهم:

**فأنت للعين عين عند نظرتها ☆ تسمو إليك كما تسمو إلى النظر**
**وأنت للقلب قلب في تقلبه ☆ يعلو إليك لدى العلياء والفكر**
**وأنت للوجد وجد في توجده ☆ بسطوة القهر لا تبقي ولا تذر**

وقال غيره:

**لقد ظهرت ولا تخفى على أحد ☆ إلا على أكمه لا يبصر القمرا**
**لكن بطنت بما ظهرت محتجبا ☆ فكيف يعرف من بالعزة استترا**

وقال غيره:

**فالعارفون فنوا ولم يشاهدوا ☆ شيئا سوى المتكبر المتعال**
**ورأوا سواه على الحقيقة هالكا ☆ في الحال والماضي والاستقبال**

قال وقوله الحق: **(كل شيء هالك إلا وجهه)** «القصص: 88» فهلاك الغير يشمل الأزمنة الثلاثة: حالا وماضيا واستقبالا. فلهذا لما يظهر الحق تبارك وتعالى على العارف لم يجد غيره كشفا وعيانا لعدم وجود الغير في الحقيقة.

ثم أعلم أن ظهور الحق ليس هو مسبوقا بخفاء، وكيف يكون ذلك وهو الباطن والظاهر، فمعنى الظهور المتعاطى عند القوم يعود

على شعور العارف به. ولهذا يقال: وصولك إلى الله، وصولك إلى العلم به. وإلا متى غاب حتى يظهر؟ وأين ذهب حتى يحضر؟.

قيل في الحكم العطائية: « كيف يحتجب الحق بشيء والذي يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر ». وقد أشبع الكلام - رضي الله عنه - في أول كتابه فراجعه إن شئت. وهذا المعنى هو محط رحال العارفين، قد صنفوا فيه تصانيف، ودونوا فيه دواوين، ولم يستوفوا الكلام في ذلك، لو كان مدادهم البحر المسجور لنفذ البحر قبل أن تنفد كلمة الظهور.

ثم قال رضي الله عنه:

**كُلُّ حَقِيقَةٍ لَا تَمْحُو أَثَرَ الْعَبْدِ وَرُسُومَهُ فَلَيْسَتْ بِحَقِيقَةٍ**

ذكر أن الحقيقة التي لم تمحو أثر العبد ورسومه حتى لا يبقى له أدنى شيء من نسبته، كما تمحي له وجود الغير من أصله، فليست بحقيقة، فصاحبها ما دام لم تمحقه حتى تتركه لا شيء ذوقا وحالا، فهو غير محقق. وأما الحقيقة الموجودة على ظاهر اللسان فلا تعتبر، إنما المعتبر عند القوم الحال الذي يطرأ على المريد حالة تجلي الألوهية على قلبه فتمحق في نظره كل الموجودات ولم يبق له إلا الحقيقة في نظره، فإن صح له ذلك فله أن أن يقول كمن قال:

---

كيف تخفى الحقيقة ☆ وشمسها مشعشع
انما يراها ☆ من بصره متسع

يرى ويسمع بها ☆ وفي الكل مجتمع
من فرق ما يراها ☆ ضرير ما فيه مطمع
يفنى عن الأكوان ☆ لا سميع لا مسمع
يرى الكون إلا هو ☆ ما يبق نه منازع
أين الخلق أين الخالق ☆ يا من ترى وتسمع
حقق ما تجد شيئا ☆ إلا الواحد المطلع

فإذا بلغ المريد ما ذكرناه بأن صار حقا بلا خلق، وجمعا بلا فرق، وغاب عن وجوده وامتحق في شهوده، وصار كأن لم يكن شيئا مذكورا، فلم يبق حينئذ إلا الله. وقد يتكلم الولي في هذا المقام على لسان الألوهية وفي وحدة الوجود المطلق، فيتدلى له من قدس الإله فياض يقتضي منه أن يشهد ذاته عين ذات الحق لمحقه فيها واستهلاكه، ويصرح في هذا الميدان بقوله: « سبحاني، لا إله إلا أنا وحدي » وكقوله: « جلت عظمتي، وتقدس كبريائي ». وهو في ذلك معذور، لأن العقل الذي يميز به الشواهد والفوائد ويعطيه تفصيل المراتب بمعرفة كل ما يستحق من الصفات غاب عنه، وامتحق وتلاشى واضمحل. وعند فقد هذا العقل وذهابه، وفياض ذلك السر القدسي عليه، تكلم بالكلام الذي وقع منه، خلفه الله فيه نيابة عنه، فهو يتكلم بلسان الحق لا بلسانه، ويعرب عن ذات الحق لا عن ذاته، ومن هذا الميدان قول « أبي يزيد البسطامي » رضي الله عنه: « سبحاني ما أعظم شاني ». وقول « الحلاج »: « أنا الحق الذي لا يغير ذاته مر الزمان. وما في الجبة إلا الله ». وقول بعضهم: «فالأرض أرضي والسماء سمائي» وكقول « الششتري » – رضي الله عنه –:

أنا شيء عجيب لمن راني ☆ أنا المحب والحبيب ما ثم ثاني

وأقوال « ابن الفارض » في مثل هذا كثيرة، وهذا ما يقتضيه الفناء والاستغراق في ذات الحق. وهذا الأمر خارج عن دائرة العقل، يدرك بالذوق وصفاء الأحوال، فلا يعلم حقيقته إلا من ذاقه.

قال « الشرنوبي »: إن المشار إليه بـ « أنا » عند المحققين من أهل الله هو الوجود الكلي الساري في كل شيء، وهو وجود الحق عز وجل لا الوجود الجزئي. فليس هناك حلول ولا اتحاد، تعالى الله عن ذلك. وإذا وقع لفظ الإتحاد في كلام الصوفية، فإنما يريدون به هذا المعنى كما قال السيد « الشريف »: الاتحاد هو شهود الوجود الحق الواحد المطلق، الذي الكل موجود به، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجودا به معدوما بنفسه، لا من حيث أن له وجودا خاصا اتحد به فإنه محال. فهذا معنى الفناء في الله. فمن حصل عليه فقد حصل على الحظ الأوفر من الله. لما قيل:

**وبعد الفنا في الله كن كيف ما تشاء ☆ فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر**

فهذا ما يقتضيه الفناء والاضمحلال، ومن لم يحصل على هذا المعنى فليس له من شراب القوم إلا مجرد السمع.

ثم قال رضي الله عنه:

## اَلْجَمْعُ مَا أَسْقَطَ تَفْرِقَتَكَ، وَمَحَى إِشَارَتَكَ

كم تداول الناس هذه الألفاظ والكل جاهل معنى المراد ما للقوم منها. القوم يصرحون بالجمع وعدم التفريق، والناس لا يدرون ما الجمع وما التحقيق إلا من حيث الإيمان، فلهم من الجزم بقدر ما لهم من الوهم في إدراك حقيقته، ولا يمكن ذلك بدون الوصول إلى الله، وكيف يمكن والحال جدير، فهو يدق عن مدارك العقول السليمة فضلا عن غيرها. وكيف لا، والمصنف يقول: « الجمع ما أسقط تفرقتك ومحى إشارتك ». نعم، هذا قول في اللسان مقبول، لكن من حيث الادراك مجهول إلا عند أهله فهو عندهم من لوازم الوصول مع عجزهم عن الإفصاح بما فيه. وكل ما أشاروا به فهو تمويه ليس فيه تشبيه بالواقع. وكيف يمكن لهم الإفصاح عما لا يمكنه افتضاح. وهل يقدر العبد أن يفصح عن كنه الذات وغوامض الصفات. بل ذلك من المستحيلات، لأن قوالب الألفاظ لن تف له بالمراد، وكلما يريد أحدهم الإفصاح إلا ويزداد في نطقه عجمة. فلو كان الخلق في استطاعتهم أن يفصحوا عما هنالك لما أطلعهم الحق عز وجل على مكنونات أسراره. فمنزلة العارف مع الحق بمنزلة الأبكم معك إذا أردت أن تطلعه على بعض أسرارك فلك أن تريه فقد يشهد ما هنالك ولا يقدر أن يفصح بما فيه لوجود الخرص.

الحق عز وجل لم يجعل ألفاظا في الكلام تساعد العارف إذا أراد أن يخبر على ما حصل عليه. فلهذا كلما تكلم بكلمة يريد بها التنزيه، فيضعها في قوالب الألفاظ يظهر فيها معنى التشبيه أو

تفصيل المراتب بمعرفة كل ما يستحق من الصفات غاب عنه، وامتحق وتلاشى واضمحل. وعند فقد هذا العقل وذهابه، وفياض ذلك السر القدسي عليه، تكلم بالكلام الذي وقع منه، خلفه الله فيه نيابة عنه، فهو يتكلم بلسان الحق لا بلسانه، ويعرب عن ذات الحق لا عن ذاته، ومن هذا الميدان قول « أبي يزيد البسطامي » رضي الله عنه: « سبحاني ما أعظم شاني ». وقول « الحلاج »: « أنا الحق الذي لا يغير ذاته مر الزمان. وما في الجبة إلا الله ». وقول بعضهم: «فالأرض أرضي والسماء سمائي» وكقول « التستري » -- رضي الله عنه --:

أنا شيء عجيب لمن رآني ** أنا المحب والحبيب ما ثم ثاني

الحلول والاتحاد وما أشبه ذلك من عقائد ذوي الضلال، فتختلف حينئذ فيه الأقوال وتتباين فيه العقائد. فمن الناس من يقول فيه زنديق، ومنهم من يقول محقق، ومنهم من يقول مغلوب، ومنهم من يقول مسلوب وهكذا. والكل لم يصادف ما للعارف إنما هو من وراء ذلك. ولبعضهم - رضي الله عنه -:

**تخالفت الأقوال فينا تباينا ☆ برجم ظنون بيننا ما له أصل**
**فشنع قوم بالوصال ولم تصل ☆ وأرجف بالسلوان قوم ولم أسل**
**فما صدق التشنيع عنها لشقوتي ☆ وقد كذبت عني الاراجيف والنقل**

نعم، الجمع يسقط التفريقات ويعطل الإشارات، لما قيل: ليس العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، انما العارف من لا إشارة له لغيبته في وجوده، وانطوائه في شهوده. وكيف تدرك هذا المعنى بدون ذوق. فلا سبيل لك أخي، إلا إذا شهدت ببصرك كيف ينطبق الوجود وتنهدم السدود (**إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت**) « الانفطار: 2 » (**إذا زلزلت الأرض زلزالها**) « الزلزلة: 1 » (**إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها**) « النمل: 34 ».

ولأبي العباس المرسي في هذا المعنى:

**لو عاينت عيناك يوم تزلزلت ☆ أرض النفوس ودكت الأجبال**
**لرأيت شمس الحق يسطع نورها ☆ حين التزلزل والرجال رجال**

ثم قال رضي الله عنه:

## وَٱلْوُصُولُ إِسْتِغْرَاقُ أَوْصَافِكَ وَتَلَاشِي نُعُوتِكَ

لا يخفى على العاقل أن وجود العبد هو مجرد الوهم، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. فلهذا إذا ظهر الحق عليه بذاته وعموم صفاته تلاشت نعوته، وامتحت نسبته (**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**) «الأنبياء: 18» وفي الحكم العطائية: «إذا ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته». وعليه يقوم الحق بدله فهو وليه ومتولاه. (**الله ولي الَّذِينَ ءامنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**) «البقرة: 257» فيبقى العبد حينئذ ولا عبد. وأنشد بعضهم:

فتفنى الحقيقة عن ذاتها ☆ ويخفى الفنا عن عيان الحقيقة
وتبقى بلا أنت فردا به ☆ أنيسا تعوم بحارا عميقة
وتقدم من غيبها ظاهرا ☆ بكل إشارة ذوق دقيقة
تميت الحجاب وتحي اللباب وهذا نهاية علم الطريقة

وقال غيره:

بقائي فنائي في بقاء الهوى ☆ فيا ويح قلبي في فنائي بقاؤه
وجودي فنائي في فنائي فالذي ☆ مع الأنس يأتيني هنيئا بلاؤه
فيا من دعا المحبوب سر لسره ☆ أتاك المنى يوم أتاك فناؤه

وقيل أيضا:

تسرمد وقتي فيك فهو مسرمد ☆ وأفنيتني عني فعدت مجددا
وكل بكل الكل وصل محقق ☆ حقائق حق في دوام تخلدا
تفرد أمري فانفردت بغربتي ☆ فصرت غريبا في البرية أوحد

ثم قال رضي الله عنه:

## الْبَصِيـرَةُ تَحْقِيـقُ الإِنْتِفَـاعِ

البصيرة هي سويداء القلب، أو تقول: هي اللطيفة النورانية، أو تقول النكتة الربانية أو الوديعة الإلهية، وبها تدرك حقائق الأشياء على ما هي عليه في الواقع. ما من شيء إلا وله حقيقة، ولا تدرك تلك الحقيقة إلا بالبصيرة. وأما البصر لا يدرك حقيقة الشيء إلا إذا صار بصيرة، وذلك كبصره ﷺ. لما قيل: إنه رأى الحق بعيني رأسه. فالرؤيا الحقيقية كانت للبصيرة لما تقدم أنها متعلقة بحقائق الأشياء، فإنها لا ترى المجاز ألبتة، المجاز للبصر.

ومن هذه الحيثية كانت البصيرة لا ترى الخلق، لأن الخلق لا حقيقة لهم في الواقع، فكانت رؤيتهم موكولة للبصر، فإنه يقع عليهم من حيث المجاز، ولا يقع على وجود الحق، لأنه وجود حقيقي راجع للبصيرة. فهي التي تحقق الانتفاع، حتى إذا انطوى البصر في البصيرة يصير الإنسان كله بصيرة. وقد وقع لأكثر العارفين مثل ذلك حتى ادعى بعضهم أنه رأى الحق بعيني رأسه.

يروى أن رجلا ادعى رؤية الحق بعيني رأسه في زمان مولانا « عبد القادر الجيلاني » - رضي الله عنه - فأوتي به إلى الشيخ فسأله عن ذلك وقال له: أَحَقٌّ ما يقول هؤلاء؟ فقال: نعم. فانفرد به الشيخ وتكلم معه في ذلك فعندئذ فاق من سكرته. فخرج الشيخ للجموع قائلا: إن الرجل انعكس بصره في بصيرته فصار كله بصيرة فرأى من (**ليس كمثله شيء**) فظن أنه رآه بعيني رأسه، فهو معذور في ذلك. قال الله عز وجل: (**مرج البحرين يلتقيان بينهما**

**برزخ لا يبغيان** ) الرحمن : ١٩ . والله يبعث بمشيئته على يد لطفه أنوار جلاله وجماله إلى قلوب عباده، فتأخذ منها، ما يأخذ المصور من الصورة، ومن وراء ذلك رداء الكبرياء الذي لا سبيل إلى خرقه، وكان جمع من المشايخ والعلماء حاضرا في هذه الواقعة فأطرب به سماع هذا الكلام، وأدهشه حسن الإفصاح عن حال ذلك الرجل، وقام بعض أفراده ومزقوا ثيابه، وخرج إلى الصحراء عريانا.

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

**لا نراه يدنو مني حتى كأنني ☆ أراه بعيني رأسي جهرا لا توهما**

وقال غيره:

**لقد ظهر عني ظهورا كفى به ☆ حتى كأن العين رأته بعينه**

ثم اعلم، أن البصر هو فرع البصيرة، فيكون على هذا أن البصيرة لها وجهان: وجه للخلق ووجه للحق، أو نقول: وجه للتشبيه ووجه للتنزيه، أو نقول: باطنها للقدم وظاهرها للحدوث، أو نقول: ظاهرها للكثيف وباطنها للطيف. ولما كان الحق هو الظاهر والباطن فلا يَتَيَسَّرُ إدراك العارف رؤية الحق من حيث الباطن ووتتعذر عليه رؤيته من حيث الظاهر إلا إذا انعكس بصره في بصيرته، وصار كله بصيرة، فيدركه حينئذ من حيث ظهور البصيرة في البصر. ولولا البصيرة لا تدركه الأبصار وهو يدركها، وكيف تدركه الأبصار وهو أقرب إليها من نفسها؟ إلا إذا صار الحق هو عينه التي يرى بها، فيكون حينئذ هو البصير نفسه بنفسه. كما قيل في هذا المعنى:

**أعارته طرفا رآها به ☆ فكان البصير لها طرفها**

ولسيدي عبد الغني النابلسي:

**لا يراهـــا غيرهـــا من أحـــد ☆ كل طـرف بـــالسوى منجـــرح**
**هـــذه لا هـــذه أنـــت ولا ☆ أنت فـاعرف عين هـذا الشَّبَـح**
**هـــو عين الكل لا كل ســـوىٰ عينـــه عين العطـــا والمنـــح**

ثم قال رضي الله عنه:

**الْحَقُّ تَعَالَى لاَ يَرَاهُ أَحَدٌ إِلاَّ إِذَا مَاتَ، وَمَنْ لَمْ يَمُتْ لَمْ يَرَ الْحَـقَّ**

الحجاب المسدول بين العبد وربه هو نسبة الوجود للعبد، فمن لم يخرج عن نسبة الوجود لنفسه لم يتصل بربه. وجودان لا يجتمعان: إن كنت موجوداً فالرب مفقود، وإن كنت مفقوداً فالرب موجود. فمن لم يترك وجود الوجود لا يحصل على الشهود، فهذا هو المانع من رؤية الحق مع أنه موجود واجب الوجود. وكل موجود صح أن يرى لكن لمن مات، والموت موتان: موت عن الدنيا وموت عن الخلق، فالموت عن الدنيا هو استبدال الخلق بالحق. موتة آجلة وموتة عاجلة. فالعاجلة لخواص المؤمنين، والآجلة لعامة المخلوقين **(كل نفس ذائقة الموت)** «آل عمران: 185» فموت العارفين موت، وموت غيرهم فوت. إذْ موت العارفين انقطاع عن الخلق، وموت غيرهم انقطاع عن الدنيا واستبدال الخلق بالحق.

ورؤية الحق رؤيتان: رؤية إطلاق ورؤية تقييد، فرؤية الإطلاق ثابتة لأهل الإطلاق الذين عرفوا الحق أنه مطلق بلا قيود. ورؤية

التقييد لأهل التقييد، وأهل التقييد هم أهل الحجاب، يدركون رؤية الحق في الآخرة على ما يقتضيه حالهم من الانقطاع، فتحصل لهم في وقت دون وقت، فهم مقيدون بالأوقات والأماكن كحالتهم في الدنيا. «يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه». فيحصل لهم بعض التجلي باعتبار طاقتهم، وحسب ما تسعه حوصلتهم من مبالغتهم في التوحيد قوة وضعفا في دار الدنيا، فيتجلى لهم الحق من سماء التنزيه على أرض التشبيه، فتشرق الأرض بنور ربها ويدركون لذة ذلك التجلي من غير كيف، فيقومون برؤيته سكارى وفي حالهم حيارى من ذلك البرق الخاطف الذي أصابهم بقدر معرفتهم، فأهل الجنة يدركون أنواع التنعمات بقدر أعمالهم، ورؤية الحق بقدر معرفتهم. وأما العارفون بالله فيدركون رؤيته بقدر معرفتهم ويتنعمون في الجنة بقدر غفلتهم، لأنهم لا يكونون مع الجنة إلا إذا تغفلوا عن الحق. والجنة لا تبرز إلا بما كان مستحلا لصاحبها. فهذه حالة العامة وموتتهم.

وأما الموت الخاص الذي هو للعارفين فقد يأخذهم عن كل ما سوى الله في الجملة، وعن أنفسهم بدون رجوع إليها. وهذا هو الموت المحقق، فلهذا كان لهم رؤية حقيقية.

**وإذا سألتك أن أراك حقيقة ☆ فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى**
**يا قلب أنت وعدتني في حبهم ☆ صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا**
**إن الغرام هو الحياة فمت به ☆ صبا فحقك أن تموت وتعذرا**

وأما موت الغير فهو موت مجازي، فلهذا كانت رؤية الحق لهم رؤية مجازية، فموتتهم ليست بموتة، إنما هي نقلة لا غير. فلو سألت

صاحبها في الآخرة من أنت؟ لقال لك: فلان بن فلان. فهذا لم يمت، ولو مات لقال لك: لا أدري.

**يا أنـــا من هو أنـــا حتى أنـــا ☆ همـــــــت في سكـــــــري**

سئل « أبو يزيد البسطامي » - رضي الله عنه - عن نفسه فقال: « مات لا رحمه الله ». فكانت موتتهم موتة لا بعث بعدها. فالعبد هو الميت، والحق هو المبعوث لا غير. فإذا رأيت العارف بعد فنائه، فلا تحسبه ذلك الذي كنت تعرفه، فهو ليس كذلك، « فني من لم يكن وبقي من لم يزل ».

**فلم يبـــق إلا الله لم يبـــق كائن ☆ فمـــا ثم موصـــول ولا ثم بـــائن**

قال « الشبلي » رحمه الله:

**تجلى لهم صرفا فـأفنى وجـودهم ☆ ولم يبـــق منهم بعـــد ذلـــك أثرا**

قوم أخذهم الله له وقام بدلهم، فكان هو لا هم. أماتهم ثم أحياهم فلا جرم إن حصلوا على الرؤية، حتى غابوا عن رؤيتهم له، ولو لم ير المريد نفسه بنفسه لم يره غيره، لأن حقيقة الذات لا يراها غيرها، فهي التي رأت نفسها بنفسها، فظن الجاهل أن العارف رأى الله. ولا يرى الله إلا الله.

**أنـا وحـدي فـافهم أمري غريب ☆ أرى ذاتي بـــذاتي شيء عجيـــب**

فالحقيقة لا ترى، لكن إذا أخذت العبد من وجوده وظهرت له في نفسه رآها بظهورها في بصره، بل في جميع ذاته، فيقول: رأيت الله. وعليه « من شاف العارف شاف من شاف الله ».

والموت شرط في صحة الرؤية، ومن ادعى رؤية الحق ولم يمت

فهو كذاب. وكيف يدرك رؤية من ليس كمثله شيء، وهو يرى وجود الشيء. فما دام الشيء موجودا فلا بد من الجهة والحدود. ثم أعلم أن صاحب الموت العام، إذا مات أول ما يفتح بصره يفتحه في الآخرة. فيصير صاحب الآخرة. ويقول وقتئذ: كنت مع أهل الدنيا. ويقول صاحب الحضرة الإلهية: كنت مع الخلق. فالأول يقول: الموت مصيبة. مستدلا بقوله تعالى: (**فأصبتكم مصيبة الموت**) « المائدة: 106 ». والثاني يقول: الموت حبيب. (**قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة**) « الجمعة: 8 ». فكان له هذا الموت مطيّةً لحضرة الحق، فهو سبيل اللقاء بعد القطيعة والشقاء. ثم يرده إلى عالم الغيب والشهادة، أي إلى عالم البطون والظهور، فيكون معه في الغيبة والحضور، لا يرى للخلق نسبة في الوجود. وقد قال له بعض الفقراء: إنني منذ دخلت على الحق لم أخرج للخلق، وكلما رمت الخروج لم أجد فسحة تسمح لي في إيجاد فسحة حتى أخرج لها، وأضع الخلق فيها. فوجود الخلق في نظري معدوم. ومن هنا قول بعضهم: « منذ وصلوا ما رجعوا، ومنذ سجدوا ما رفعوا ». وقد قيل في هذا المعنى:

**منذ عرفت الإله لم أر غيرا ☆ وكذا الغير عندنا ممنوع**
**منذ تجمعت ما خشيت افتراقا ☆ و أنا اليوم واصل مجموع**

وكل ما حصلوا عليه فهو منوط بالموت. قال ﷺ: (**موتوا قبل أن تموتوا**) ففي الموت الراحة الأبدية.

**شربنا نقطة منها فهمنا ☆ فإن متنا فما في الموت عار**

ثم قال رضي الله عنه:

**الْمَوْتُ كَرَامَةٌ، وَالْفَوْتُ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ. الْمَوْتُ انْقِطَاعٌ عَنِ الْخَلْقِ، وَالْفَوْتُ انْقِطَاعٌ عَنِ الْحَقِّ**

تقدم الكلام على هذا المعنى، وعلى أن الموت المراد به الموت الخاص لا الموت العام، لأن الموت العام لا انقطاع فيه عن الخلق، فصاحبه انتقل من خلق إلى خلق، فهو مع الخلق أينما كان دنيا وأخرى. وقد ذكره الحق عز وجل مصيبة في قوله: (**فأصابتكم مصيبة الموت**) « المائدة: 106 » وصاحبه إن كان هنا محجوبا عن الله فلا جرم يبعث محجوبا (**يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه**)... (**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى**) « الاسراء: 72 » (**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**) « الحج: 46 » ويكون على هذا الوجه ليست فيه كرامة، لأنه إنقطاع عن الحق لا عن الخلق، لأن الميت إذا مات عن دنياه انتقل إلى أخراه على أي حالة كان. فالآخرة خلق، كما أن الدنيا خلق. ولا يخفى على العاقل ما وراء هذه من العقبات. قال ﷺ: (**سبع عقبات بين العبد وربه، أهونها الموت، وأصعبها الوقوف بين يدي الله**) ومن حيث هذه الوجهة كان مصيبة على من لا يموت قبله. قال ﷺ: (**موتوا قبل أن تموتوا**) فمن حصل له الموت العاجل في الغالب يسكن روعه لما وراء الموت الآجل لقوله ﷺ - من حيث الإشارة -: (**لا مصيبة بعد الموت**) أي ما بعد الموت أهون مما قبله. فهذا هو الموت المعبر عنه بالكرامة التي هي

موتة العارفين الموحدين الحاضرين مع الله، الغائبين عن الخلق دنيا وأخرى ماتوا عن الكل، وماتوا عن أنفسهم وأهوائهم لما سمعوا قوله ﷺ: (**موتوا قبل أن تموتوا**) ماتوا لما طرقتهم النفخة الإسرافيلية من الحضرة الإلهية، فحركت الأشواق (**والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق**) « القيامة: 29 » فانطرحوا بين يديه فخاطبهم لسان التوحيد قائلا: (**ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة**) « الأنعام: 94 » فأجاب لسان حالهم: (**لا تبديل لخلق الله**) « الروم: 30 » فلما تحققوا بحقه وقدروا الله حق قدره، اجتباهم إليه ونفخ فيهم من روحه، وأجلسهم على بساط أنسه وقال: (**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**) « يونس: 62 ». فأجاب لسان الحال: (**فالله هو الوَلِيُّ، وهو يحي الموتى**) « الشورى: 9 ».

فهذه موتة القوم، وهذه هي الموت وما سواها فوت.

**فالموت موت العشاق عن كل ذرة ☆ فماتوا عن الخلق وبالحق وجدوا**
**تراهم فلا ترى ولو كنت تراهم ☆ لرأيت من قام من بعد ما فاقوا**

سبحان من خصهم واجتباهم، وعرفهم وارتضاهم، فهم عباد الله لا محالة، وأما الغير فلا، ولو صام وصلى وقرأ العلم.

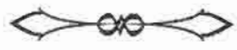

ثم قال رضي الله عنه:

## السَّالِكُ ذَاهِبٌ إِلَيْهِ، وَالْعَارِفُ ذَاهِبٌ فِيهِ

شتان بين مريد ومراد ( **كُلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً** ) « الاسراء : 20 » لأن السالك سائر في طلب الحق جاد في الوصول إليه، لا يريد به بدلا، فهو مستعمل كل أنواع القربات، فَانٍ على حظوظه في حقوق مولاه، لا وجهة له سواه؛ فالوقت الذي لم يزد فيه قربا إلى مولاه يكتبه من جملة الحسرات، إلى أن يصل إلى مرغوبه، ويرتفع عنه الحجاب، ويقال له: أدن فهذا جمالنا تمتع به، فمرحبا بك وأهلا وسهلا؛ ويظهر له الحق ظهورا لا يمكن احتجابه، فيقول كمن قال: « لو كلفت أن أرى ما سوى الله لم أستطع ». فيكون حينئذ عارفا موصولاً، ومن هنا يبتدىء السير، إلا أن السير الأول إنتهىٰ إلى الله، والسير الثاني يكون في الله، وهو قول المصنف: « العارف ذاهب في الله ». فَانٍ فيه ومتلاشٍ، والمراد به غائب في شهوده ومنطوٍ في وجوده حتى يصير هو بلا هو.

ثم اعلم أن العارف كلما تعرف له الحق ينبغي له أن لا يقف عند ما عرف، إلى أن يصل إلى غاية لا يمكن التعبير عليها. ومن هنا قال ﷺ: (**من عرف الله كَلّ لسانه**)، وقال بعض العارفين:

**عرفتك في عين الوجود حقيقة ☆ وغبت عن عرفاني فصرت لا أعرف**

والمعنى أن العارف لا يكتفي بمجرد الوصول، لأن الوصول هو كناية عن استشعار العارف بوحدانية الإله ذوقا وحالا، وهو أول قدم

الموحدين لقول « ابن الفارض » رضي الله عنه:

**وإن اكتفى غيري بطيف خياله ☆ فأنـا الـذي بوصالـه لا أكتفي**

وهذا المعنى عند عامة القوم غير معقول، إنما هو من الأمور النظرية التي تدرك بالتأمل، لأن المستشرف إبتداءً لا يبلغ عقله إلا بعد المشاهدة، والوصول يحتاج إلى وصول، إلا إذا أمعن النظر في علم القوم بواسطة عارف حاذق، فحينئذ يدرك ما أشرنا إليه والله أعلم.

ثم قال رضي الله عنه:

## بَقَـاءُ الأَبَـدِ فِي فَنَـائِـكَ عَنْـكَ

فمن أراد أن يحيا حياة أبدية، فليمت موتة كلية، ومن فنى عن نفسه بقي بربه. وبقاء الربوبية مستمر، فمن مات عن نفسه وهواه ودنياه وأخراه عاش بالله. فهذا شَرْطٌ لازم وأمر متحتم. فاخرج أيها المريد عن روحك وشبحك ونفسك وأبناء جنسك، بل عن العالم بأسره جوهره وعرضه، وافن في الله فناء سرمداً، فإنك تبقى به بقاء أبديا.

لا بقاء إلا بعد الفناء، ولا حياة إلا بعد الموت، ولا نشر إلا بعد القبر. فمن لم يدخل أرض العدم لم يرتفع إلى سماء الوجود، ومن لم يمت لم يشم رائحة الفوت. **(موتوا قبل أن تموتوا)**.

أَعْطِ تُعْطَ. فذلك مهر الطريق.

ثم قال رضي الله عنه:

**أَحْرِصْ أَنْ لاَ يَكُونَ لَكَ شَيءٌ، تَعْرِفْ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ**

أحرص أيها المريد، وافحص على هذا الكنز الغميض حتى لا يكون لك شيء مع الله. فإن تمحض لك ذلك وزال الكل من نظرك، وامتحى من لوحة الوجود وبقي الحق كما كان، ولن يزال موجودا، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. إذْ لا يمكن تعدد الوجود، تعرف به حينئذ كل موجود. فثبات الأشياء بالله لا بنفسها، وذاتها وطبعها وعادتها، فهي لا شيء. قال في الحكم العطائية: « الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته ». فيكون الكون حينئذ مفقودا من حيث الذات، موجودا من حيث الصفات التي تطلب شيئا زائدا وهو التعلق، ولا زائد باعتبار التحقق. فما كان إلا الذي كان، لأن ذات مولانا لا تقبل الزيادة كما لا تقبل النقصان، فإذا تمحض ذلك تصير الأشياء عندك حينئذ قائمة بالله لا بنفسها، ولا يصح لك ذلك حتى لا يبقى لك شيء، فإن تحققت بوحدة الوجود تعرف بها كل موجود، ولولا وجود الحق ما وقع بصرك على الوجود، لأن البصر لا يتعلق بالمفقود. ولهذا قال رضي الله عنه:

**مَنْ لَمْ يَكُنْ بِالأَحَدِ لَمْ يَكُنْ بِأَحَدٍ**

أي من لم يكن استمداده ووجوده من ذات موجده لم يكن موجوداً رأساً. وفي هذا المعنى قيل:

**من لا وجود لذاته من ذاته ☆ فوجوده لولاه عين المحال**

**واعلم بـــأنك والعـــوالم كلهـــا ☆ لـــولاه في محـــو وفي اضمحـــلال**

وحاصل الأمر أن وجود الخلق مستمد من وجود الحق استمداداً كليا بحيث لا وجود له في الخارج. فمن لم يكن بالأحد يكن بأحد، فوجوده محال. إياك أخي أن يقع بصرك على الموجودات فتتوهم أنه وقع على وجودها لذاتها. وذا محال، إنما وقع على وجود موجدها الذي هو معار إليها (**الله نور السموات والأرض مثل نوره**) النور: 34 » قدر الأشياء في سابق علمه، ثم أفرغ عليها من وجوده، فظهور الأشياء من حيث ظهوره.

**تجليت في الأشياء حين خلقتها ☆ ولولا وجودك ما كان وجودها**

الحق سبحانه وتعالى ظاهر في الوجود ظهور الشمس في رابعة النهار. ومن حيث ظهوره من وراء حجاب المكونات أي أسمائها التي هي أسماؤه في الحقيقة. وقعت الأبصار على الموجودات، فظن الرائي أنه نظر الموجودات من حيث ذاتها (**إن بعض الظن إثم**) « الحجرات: 12 » فقد وضع الأشياء في غير محلها، ولم ينزل الناس منازلهم:

الحق لا يحجبه غير، وإن كان الغير فالحق فيه ظاهر. قال في الحكم العطائية: « لولا ظهوره في المكونات، ما وقع عليها وجود البصر ». وقال أيضا: « ما حجبك عن الحق وجود موجد معه، ولكن حجبك توهم وجود موجد معه ». فمن نسبتك الوجود لغيره احتجبت عن ذاته. ولو علمت أن الوجود لا يقوم بذاته، وأنه لا يظهر في العدم، وأنه لا يثبت زائد مع من له وصف القدم، لقلت: « ضدان لا يجتمعان » العبد حق والرب حق. أترك حق الحق،

ووجود الوجود، واطو الشاهد في المشهود، والعابد في المعبود، وقل:

توحيـــد حـــقّ بترك حـــق ☆ والكل حـــق وأنـــا وحـــدي
مـــا غـــاب حق مـــا زال حق ☆ والحـــــق مني وعنـــــدي
وجـــدت حقـــا في نفس حـــق ☆ وصرت حقـــا والحـــق عنـــدي

ثم قال رضي الله عنه:

## مَنْ عَـرَفَ أَحَداً لَـمْ يَعْـرِفْ الأَحَدَ

فمن تحقق بالأحدية لم يجد معها أدنى شيء زائد لانفرادها بالوجود المطلق، ومن عرف أن هنالك أحدا موجودا سواها فإنه لم يعرف الأحد ولا خبر له بمعرفته، إنما هو في بعد وقطيعة حيث أثبت شيئا زائداً على وحدانية الإله.

كان يقول استاذنا سيدي «محمد البوزيدي» رحمة الله عليه: «إذا بقيت للمريد شعرة من جسده خارجة عن الوجود المطلق بحيث لم يثبتها بالله، فهو محجوب عن الله». وكان يقول: «إن الولاية تمنعها شعرة». فإن كان هكذا، فكيف بمن يثبت للمخلوقات وجوداً زائداً على الذات. لا محالة أنه بعيد عن التوحيد، إلا إذا خرج عن كل الحقيقة وصور العبيد، فيجد حينئذ وجود فرد، لا نقيض له ولا ضد.

ثم قال رضي الله عنه:

## مَا بَانَ عَنْهُ أَحَدٌ، ولا اتَّصَلَ بِهِ أَحَدٌ

ما انفصل عنه شيء، ولا اتصل به شيء، أو تقول: ما زاد عنه شيء، ولا نقص منه شيء، لعدم وجود الشيء في الحقيقة. فمن أين يطرأ هذا الشيء والحال لا شيء.

ثم اعلم، أن الحضرة الأحدية تأبى كلاًّ من الجهات والزوائد والنقصان، بل كل شيء له إثبات دون إثباتها، لأنها كنز غميض، وبحر لا موج فيه، ولا فسحة لديه، لا يمين ولا شمال، ولا كيف ولا مثال. وما أحسن قول العارف بالله سيدي « عبد الكريم الجيلي » في ﴿الإنسان الكامل﴾ حيث قال:

عزت مداركه غابت عوالمه ☆ جلت مهالكه أصمت صوارمه
لا العين تبصره لا الحد يحصره ☆ لا الوصف يحضره من ذا ينادمه
كلت عبارته ضاعت إشارته ☆ هدت عمارته قلبا يصادمه
عال ولا فلك روح ولا ملك ☆ ملك له ملك عزت محارمه
عين ولا بصر علم ولا خبر ☆ فعل ولا أثر غابت معالمه
ذات مجردة نعت مفردة ☆ آي مسردة يقرأه راقمه

وقد قال لسان حال هذه الحضرة:

فحيَّ على جمع القديم فهل له ☆ نقيض وحاشاه فكان ولا زالا
فكنت مطلق الذات غير محيَّزٍ ☆ مكاني إني مني والعلم يرى جهلا
وليس لفوق الفوق فوق ولا غاية ☆ وليس لتحت التحت تحت ولا سفلا
وإني غميض الكنه كنز مطلسم ☆ ولا منتهى عرضا ولا منتهى طولا

ظهرت في ذا البطون قبل ظهوره ☆ سألت عن نفسي بنفسي قال بلى
فهل للسوى ظهور يمكن في حقه ☆ فهال ثم مـــال وصـــال ثم قـــالا
فـإني فريـد الـذات شيء مفرد ☆ فلا يمكن تحييزي لشيء وإن قلا
وهل لي فسحة تكون إلى غيري ☆ وهل يكون الفراغ كلا ولا ولا
فإني باطن الكنه من حيث عينه ☆ وإني ظاهر النعت جملة مفصلا
ولا وجهـــة إلا وإني موليهـــا ☆ وهل للسوى وجود وهل من نعتي خلا
فذاتي ذات الوجود كانت كما ترى ☆ تعظيمي غير محدود بكقدر خردلا
فـأين يظهر الخلق والحـق واسع ☆ إلا إذا بـــه ظـــاهر وإلا فـــلا

فإذا فهمت هذا فهل يمكن أن يزاد على هذه العظمة شيء أو ينقص منها شيء، أو يتصل بها شيء، أو ينفصل عنها شيء. لا والله «كان الله ولا شيء».

ثم قال رضي رضي الله عنه:

## مَا بَانَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ العِلْمِ، وَلاَ اتَّصَلَ بِهِ مِنْ حَيْثُ الـذَّاتِ

العلم ملازم للذات، عظيم بعظمتها، فحيثما وجدت الذات إلا والعلم من نعتها، لأن الذات تحوط بالصفة، والصفة لا تحوط بذاتها، الذات تحوط بالصفة من حيث أن الصفة موجودة في ذاتها. والصفة لا تحوط بالذات من حيث أن الذات معدوم تحيزها. أو تقول: عدم الاحاطة هي نفس الإحاطة، لأن مقتضى العلم الإحاطة والشمول.

فمن هذه الحيثية لا يمكن البينونة، كما لا يمكن أن يتصل به شيء من حيث عظمة الذات المقتضية لعدم الفسحة والجهات. إذ لو كان لشيء معها أدنى وجود لا بد من الجهة والحدود، والاتصال والانفصال، والكل منها محال. وقد تقدم لك ما ذكرناه من عظمة الذات، ولو أمكن التحيز لأمكن وجود الغير، وهو نفس الفسحة والحيزية، تعالى الله أن تكون له جهة أو هو في وجهة، وليس لأحد أدنى معرفة بما ذكرناه إلا من كشف له الحجاب، وعرف معنى العظمة التي لا تتناهى ولا تتقيد بوجود السماء ولا بوجود الأرض، **(وله الكبرياء في السموات والأرض)** « الجاثية: 37 » وهل يثبت السماء مع وجود العظمة، سبحان من أثبت الشيء وهو لا شيء، إنما هو توحيد محض.

ولهذا قال رضي الله عنه:

**الوَحْدَةُ بِحَضْرَةٍ تُلْهِبُ، ثُمَّ نَظْرَةٌ تَسْلُبُ. الأَجْسَامُ أَقْلَامٌ، وَالأَرْوَاحُ أَلْوَاحٌ، وَالنُّفُوسُ كُؤُوسٌ**

لما ذكر أن الحق عز وجل ما اتصل به أحد، ولا بان عنه أحد من حيث العظمة والاحاطة والشمول، تكلم عن الكائنات أي مظهر الأسماء والصفات من حيث الظواهر والبواطن، أرواح وأشباح، يشير إلى وحدة الوجود، وكيفية تجليها في كل موجود، فذكر أن الأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والنفوس كؤوس، والوحدة من تلك

الكؤوس تلهب، فيا لها من نظرة تسلب، قد خمرت أكثر العاشقين بجمالها، حيث لاح من كأسها. ولولا كأسها من جنسها لما استطاع تحملها. قلت في مدحه تشريفا لقدرها:

كأسه من جنسه يساعد في شربه ☆ وهل كأسه يكفي دونه قلت بلى
عجبت لهذا الكأس يسقي بنفسه ☆ يطوف على العشاق هذا فيه خصلا
ومن نعته سحر رسم في طرفه ☆ من نظر ختمه تخلى عن الصولا
ومن عجبٍ أني ما بحت بسره ☆ ولو سقي سواي ما صام ولا صلى
ولو نظر الإمام نور جماله ☆ لسجد إليه بدلا عن القبلا
ولو شمت العُلَّمُ في الدرس نشره ☆ لطاشت عن التدريس حالا بلا مهلا
ولو شاهد الساعي سناه لما سعى ☆ ولا طاف بالعتيق ولا قبل قبلا
نعم يأمر بالتقبيل كلا لركنه ☆ حيث يرى عين القصد من نفسه تجلى

فيا له من كأس ويا لها من خمرة!

خمرة يحتاج الكل طرا لشربها ☆ كما يحتاج السكران لمزيد السكر

فالكل لها عاشق ولم يدر من أين الطريق، إنما هم بذكرها حيارى وبحبها سكارى. فكيف لو شاهدوا جمالها الفتان. ولسلطان العاشقين في مثل هذا الشان:

ولو نظر الندمان ختم إنائها ☆ لأسكرهم من دونها ذلك الختم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت ☆ لعادت إليه الروح وانتعش الجسم
ولو طرحوا في فيء حائط كرمها ☆ عليلا وقد أشفى لفارقه السقم
ولو قربوا من حانها مقعدا مشى ☆ وتنطق من ذكرى مذاقتها البكم

ولو عبقت في الشرق أنفاس طيبها ☆ وفي الغرب مركوم لعاد له الشم
ولو خضبت من كأسها كف لامس ☆ لما ضل في ليل وفي يده النجم
ولو جليت سرا على أكمه غدا ☆ بصيراً ومن زاووقها تسمع الصم
ولو أن ركبا يمموا ترب أرضها ☆ وفي الركب ملسوعٌ لما ضره السم
ولو رسم الراقي حروف اسمها على ☆ جبين مصاب جن أبرأه الرسم
وفوق لواء الجيش لو رقم اسمها ☆ لأسكر من تحت اللّوَا ذلك الرقم
تهذب أخلاق الندامى فيهتدي ☆ بها لطريق العزم من لا له عزم
ويكرم من لم يعرف الجود كفه ☆ ويحلم عند الغيظ من لا له حلم
ولو نال فدم القوم لثم فدامها ☆ لأكسبه معنى شمائلها اللثم
يقولون لي صفها فأنت بوصفها ☆ خبيرٌ أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ☆ ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمٌ
تقدم كل الكائنات حديثها ☆ قديما ولا شكل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة ☆ بها احتجبت عن كل من لا له فهم

فتحصل من هذا أن الموجودات من حيث هي أوانٍ لسرّ الألوهية، والأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والكاتب بالقلم هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم. قال من درى وتعلم:

تراني كالآلاتِ وهو محركي ☆ أنا قلم والاقتدار أصابع

وإذا كانت الأرواح ألواحاً، يتضح لك أن عالم الملكوت هو اللوح المحفوظ، لأن الأرواح ملكوتية كما أن الأجسام ناسوتية، فكلما تحرك قلم الناسوت إلا ويرتسم في لوح الملكوت، فهو من حيث ظاهره لوح المحو والإثبات، ومن حيث باطنه محفوظ من كل الجهات، فمن حيث ظاهره كتاب مسطور، ومن حيث باطنه الرق المنشور.

ثم اعلم ان الروح لما نزل على البدن أنزل فيه كل ما يجري على الإنسان من خير وغير، فلا تتحرك الجوارح إلا بما في لوح الروح، لأنه رأي الروح له ظاهر وباطن، فباطنه مقابل للحق، وظاهره مقابل للخلق. أو تقول: باطنه موجه للسر، وظاهره موجه للشبح. فالوجهة التي هي مقابلة للحق، أو تقول لأم الكتاب مطبوع فيها ما يؤخذ من أم الكتاب من غير تبديل إلى ما قدر على الإنسان كان، وما لم يقدر عليه لم يكن، والوجهة التي هي مقابلة للشبح يرسم فيها أعمال الجوارح وفيها (**يمحو الله ما يشاء ويثبت**) «الرعد: 39» حسب أعمال الشخص. فمن أجل هذا كان إلى الملكوت باطنه الرق المنشور، وظاهره الكتاب المسطور. وكل إنسان إلا وله نسخة من هذا الكتاب وهو الروح وما رسم فيه. (**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً**) «الاسراء: 13» فكتابه من روحه، وقلمه من جسمه، ومداده من نفسه. فقد جمع في الإنسان ما لم يجمع في غيره. فمن نظر في نفسه وانتبه لسطوره في الغالب يستخرج علمه من نفسه على حد ما قيل:

**إذا كنت تقرأ علم الحروف ☆ فشخصك لوح به أسطر**
**وتمثال ذلك أنموذج ☆ لكل الوجود لمن يبصر**
**ففيك أشعة لاهوته ☆ من البدر يا ذا النهى أنور**
**وشمس المعارف أنوارها ☆ من الشمس في ضوئها أظهر**
**لقد ظهرت بسماء القلوب ☆ خفايا القلوب لمن ينظر**
**سماء على قطب توحيده ☆ تدور اشتياقا فلا تقصر**
**لها من أشعة عرفانه ☆ نجوم بإخلاصها تزهر**

فمشرقهـــا أفـــق سودائهـــا ☆ ومغربهـــا سره المضمـــر
وعرش الصفـــاء لهـــا مركـــز ☆ إليـــه أنهي كل مـــا يسطـــر
هنـــاك المليـــك تجلى لهـــا ☆ وأوحى لهـــا كل مـــا يـــؤمر

وقال غيـــره:

يـــا قـــاصر عين الخبر ☆ غطـــــاه عينـــــك
ارجـــع لـــذلك واعتبر ☆ مـــــــــا ثم غيرك
فـــالخير منـــك والخبر ☆ والسر عنـــــــدك
وأنـــت مرآة النظـــر ☆ قطـــب الزمـــان
وفيـك يطوى مـا انتشر ☆ مـــــــن الأوان

وقال آخـــر:

إذا كنت كرسيا وعرشا وجنة ☆ ونـــارا وأفلاكا تـــدور وأمـــلاكا
وكنت مـــن الكل نسخـــة كلـــه ☆ وأدركـــت هـــذا بالحقيقـــة إدراكا
ففيم التـــأني بـــالحضيض مثبطـــا ☆ مقيما مـــع الأسرى أمـــا آن إسراكا

وقال غيـــره:

اقـــرأ معنى السطـــور فيك أجمـــع ☆ الشمس والبدور فيك تغيب وتطلع

وقال الإمام « البوني » - رحمه الله - بعد ما ذكر ما في الإنسان من السطور والآيات الباهرة: « من لم يعرف كتابه الذي هو هو، فليس هو هو ». ويتضح لك ما في الإنسان إن استحضرت قوله عز من قائل في حديث قدسي: (**ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**) فمن باب أولى إن قلت فيه ما في الوجود من الفرش إلى الثرى. فتحصل من هذا أن الوجود من عرشه إلى فرشه

ليس أجنبيا من الحضرة الإلهية، إنما هو شعاعها، ومظهر من مظاهرها، فكل من الأجسام والأقلام والألواح والأرواح والنفوس والكؤوس لوامع برقية، وأنوار قدسية، تسترت باسم الغيرية. وليس هناك إلا وحدة الحق تلهب كما تقدم. فكل إنسان إلا وله حظ من ربه. فلو انطوى في بصيرته، وانطوى مجازه في حقيقته، لوجد الحق أقرب إليه من نفسه. ( **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ) « فصلت : 53 » فمن تبين له أنه الحق، يفهم معنى السطور، ويجد من نفسه كتابا منشورا ( **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ) « الاسراء : 14 » ثم يجد في نفسه كنزا بجدار الهيكل مستورا، حتى إذا انقض الجدار، وفشت الأسرار، يرتاح حينئذ من التعب، ولم يبق له إلا وحدة تلهب ونظرة تسلب. فتفطن أيها المريد لما في نفسك وحاسبها عن القليل والكثير، والنقير والقطمير. وليس الشان أن تترك نفسك وتعاديها حيث أنها أتت من محل معتبر، إنما الشان أن تبحث عما احتوت عليه لعلها تخبرك عما تخفيه عن غيرك.

ثم قال رضي الله عنه:

**مَنْ نَظَرَ إِلَى المُكَوَّنَاتِ نَظَرَ إِرَادَةٍ وَشَهْوَةٍ، حُجِبَ عَنِ الْغَيْرِ فِيهَا وَالإِنْتِفَاعِ بِهَا**

أي من نظر الأشياء من حيث ذاتها احتجب عن الانتفاع بها، لأن الحق عز وجل أذن لنا في النظر إليها، ولم يأذن لنا في الوقوف معها. قال: (**قل انظروا ما ذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**) «يونس: 101» ولم يقل انظروا السموات والارض احترازا من الوقوف مع ظواهر الأجرام وقوف شهوة، وليس الشان أن ترى الأواني إنما الشان أن تنظر ما هنالك من المعاني. قال في الحكم العطائية: «الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة». فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها. قال عز من قائل: (**فاعتبروا يا أولي الأبصار**) «الحشر: 2» فمن لم ينظر الأشياء بعين الاعتبار فاتته المنة من الله، ولم يزد منه إلا فرارا، ومثله كمن لا يعرف الكتابة حتى إذا نظر في مسودة الكتاب فلا يرى إلا سواداً في بياض، ولم يعلم أن ذلك النقش والمباني ألفاظ تدل على معان. فكذلك الكائنات لمن أبصرها. وما أحسن ما قيل:

**تأمل سطور الكائنات فإنها ☆ من الملإ الأعلى إليك رسائل**
**لقد خط فيها لو تأملت سطرها ☆ ألا كل شيء ما خلا الله باطل**

إياك أخي أن ترفع بصرك للموجودات فتأخذ منها ما يأخذه البصر، بل ينبغي لك أن تحقق ما هنا لك من المعاني والمباني. قال الإمام «الغزالي» - رحمه الله -: «إياك أن ترفع بصرك للسماء فترى

زرقته وضياء الكواكب، فإن البهائم تشاركك في هذا النظر ». وإن كان ذلك هو المراد من النظر، فلم مدح الله إبراهيم عليه الصلاة السلام بقوله: (**كذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين**) « الأنعام: 75 » لقد كان إبراهيم عليه السلام إذا نظر الأشياء يرى فيها مولاها قبل أن يراها، كان الكون عنده مرآة المكون متى احتجب الحق عن الخلق؟ إذا ظهرت صفاته غابت مكوناته.

الحق عز وجل إذا ظهر في الخلق يبقى ولا خلق. ولهذا (**لما رأى كوكبا قال هذا ربي**) « الأنعام: 75 » فلم يبق له من الكواكب إلا مجرد الإسم ولا مفهوم للكواكب. وفي هذا المعنى قال سلطان العاشقين:

**فتراءيت في سواك لعين ☆ بك قرت وما رأيت سواكا**
**وكذاك الخليل قلب قبلي ☆ طرفه حين راقب الأفلاكا**
**فالدياجي لنا الآن غر ☆ حيث أهديت لي هدى من سناكا**

فهذا حال من نظر الأشياء نظر اعتبار، فلا يلبث أن يرى رب الأشياء. « في الزوايا خبايا » (**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء**) « الأنعام: 83 » فقد رفعهم عليه السلام بقوله: (**هذا ربي**) من مقام الإيمان إلى أعلى مراتب الإحسان ولكن (**الله يجتبي إليه من يشاء، و يهدي إليه من ينيب**) « الشورى: 13 » من عباده. ولا تقل ان إبراهيم عليه السلام قال ذلك حالة كونه غير عالم بمرتبة الألوهية، فإنك تصفه بما أعظم من المعصية. وقد أمرت بتنزيهه عن الصغائر والكبائر قبل النبوة وبعدها، فما قال ذلك

يا أخي إلا استغراقا في المشاهدة، وترشيحا في معنى التصريح عند ما لاح عليه برق الجمال، واستولت عليه مرتبة الكمال، قال ذلك لعزمه، وما أحسن ما قال، تحدث بما أنعم الله عليه ففاز بكل خير، ولا زالت هذه الأمة على ملته، تفصل لك كل ما عجزت عن فهمه، لتكون حجة عليك كما كان حجة على قومه. وفي ذلك قال من كان على قدمه: (1)

فلا تك مفتونا بحسنك معجبا ☆ بنفسك موقوفا على لبس غرة
وفارق ظلال الفرق فالجمع منتج ☆ هدى فرقة بالإتحاد تحدت
وصرح بإطلاق الجمال ولا تقل ☆ بتقييده ميلا لزخرف زينة
فكل مليح حسنه من جمالها ☆ معار له بل حسن كل مليحة
بها قيس لُبْنَىٰ هام بل كل عاشق ☆ كمجنون ليلى أو كثير عزة
فكل صبا منهم إلى وصف لبسها ☆ بصورة حسن لاح في حسن صورة
وما ذاك إلا أن بدت بمظاهر ☆ فظنوا سواها وهي فيها تجلت
بدت باحتجاب واختفت بمظاهر ☆ على صبغ التلوين في كل بزرة

وقال آخر:

واحد عدده العقل لنا ☆ بانتظام كعقود السبح
وتحقق وتدقق واعترف ☆ أنك الفرد الذي لم تلمح
وتوحد واترك الكثرة عن ☆ وهمك الحاجب عنه واستح

وقل أيضا كمن قال:

كل شيء عقد جوهر ☆ حلية الحسن المهيب

---

1) ابن الفارض: الديوان ص: 69 ط بيروت.

ثم قال رضي الله عنه:

## مَنْ أَنِسَ بِالْخَلْقِ اسْتَوْحَشَ مِنَ الْحَقِّ

أي من استأنس بالخلق وركن لظاهر الأشياء استوحش من الحق لا محالة « ضدان لا يجتمعان » فمن استأنس بشيء استوحش من شيء. وكل من نظر الموجودات ولم ير الله قبلها أو بعدها أو معها بحيث يشاهده في كل شيء شيء، فهو متباعد عن الله.

العارفون لا يرون من الخلق إلا ما يحتاجون إليه وهو نفس الحق، ولولا ظهوره في الأشياء لما رفعوا لها أبصارهم، فهم غائبون عن الكل. « ولأبي إسحاق الأعزب » رحمة الله عليه:

**محال قلوب العارفين برؤية ☆ إلهية من دونها حجب الرب**
**معسكرنا فيها ومجنى ثمارها ☆ تنسم روح الأنس بالله في القرب**
**حباها فأدناها فحازت مدى الهوى ☆ فلولا مدى الآمال ماتت من الحب**

فهذه حالة المستأنسين بالله. وقد كان من جملتهم، وعند ما توفي رحمه الله رؤي في المنام فقيل له ما فعل الله بك؟ فأنشد هذه الأبيات:

**لاحظته فرآني في ملاحظتي ☆ فغبت عن رؤيتي عني بمعناه**
**وشاهدت همتي حقا ملاحظتي ☆ لما تحققت معنى كون رؤياه**
**فلا إلى فرقتي وصلي ولا سكني ☆ إلى سواه فعيشي طيب لقياه**

**( يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه ).**

**من مات فيه غراما عاش مرتقيا ☆ ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج**
**محجب لو سرى في مثل طرته ☆ أغنته غرته الغرا عن السرج**

وإن ضللت بليل من ذوائبه ☆ أهدى لعيني الهدى صبح من البلج
وإن تنفس قال المسك معترفا ☆ لعارفي طيبه من نشره أرجي

العارف بالله يعيش سكرانا ويموت سكرانا ويبعث نشوانا، فهو يترنم حيثما كان «منذ ذاق ما أفاق». ولبعضهم:(1)

وقالوا شربت الإثم كلا وإنما ☆ شربت التي في تركها عندي الإثم
هنيئا لأهل الدير كم سكروا بها ☆ وما شربوا منها ولكنهم همّوا
وعندي منها نشوة قبل نشأتي ☆ معي أبدا تبقى وإن بلي العظم
عليك بها صرفا وإن شئت مزجها ☆ فعدلك عن ظلم الحبيب هو الظلم
فدونكها في الحان واستجلها بها ☆ على نغم الألحان فهي بها غنم
فما سكنت والهم يوما بموضع ☆ كذلك لم يسكن مع النغم غم
وفي سكرة منها ولو عمر ساعة ☆ ترى الدهر عبدا طائعا ولك الحكم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيا ☆ ومن لم يمت بها سكرا فاته الحزم
على نفسه فليبك من ضاع عمره ☆ وليس له فيها نصيب ولا سهم

أي من لم يمت سكرا بها هو المستوحش من الحق، المستأنس بالخلق، فقد فاته الحزم دنيا وأخرى، فهو لا يرى إلا الخلق ونفس البناء ولو صعد إلى أعلى عليين، لا تزيد نظرته على ما هي عليه. قال ﷺ: **(إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وأن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم)**.

فإياك يا أخي أن تفهم أنك إذا صعدت للعلا أو تعلقت بالعرش، ترى شيئا زائداً على ما تراه هنا من المصنوعات، فالكل خلق من

---

1) يراجع النص في «ابن الفارض» الديوان ص: 143، ط. دار صادر، بيروت، 1962.

عرشه إلى فرشه، فإذا فقدته هنا فقد فقدته في سائر المظاهر:

**وليس تنال الذات في غير مظهر ☆ ولو تهتك الإنسان من شدة الحرص**

وقد بلغك أن الله يتجلى لأهل المحشر على صفة غير معقولة عندهم فينكرونه، إلا من أخذ الله بيده. فمن فاتته المنة هنا فقد فاتته هناك. **(من كان في هذه أعمى فهو في الأخرة أعمى)** «الاسراء: 72».

ثم اعلم أن هذه الصفة المتجلي بها في المحشر هي المتجلي بها اليوم، وإنك تراه ولن تراه. ولو صرحنا لك به لأنكرته كما تنكره غداً. وإن شئت أن تحصل على هذه الرؤية حتى تكون عارفاً به، وإن ترادفت التجليات، فلا تقف مع ذوات المكونات بل أطلب ما وراء ذلك، وارفع رأسك عن الخلق، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، حتى إذا تطاولت همتك ونفذت من سرادق الموجودات، وجالت في إطلاق الذات وأنوار الصفات، تعرف حينئذ كم لله من التجليات.

وقد سألت بعض المريدين حالة دخوله لهذا الميدان وكان أميا: كم لله من الأسماء؟ فقال لي: على عدد الموجودات؛ ما من إسم إلا وتحته إسم وصفة. قلت له: وكم له من التجليات؟ قال: في معنى هذه الأية **(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)** «النحل: 18» قلت له: كم له من ذات؟ فقال: هو واحد الذات. ثم قال: لا ذات مع ذات الله ولا صفة مع صفاته، ولا إسم مع إسمه. ثم أنشأ يقول فيما حفظه عنا:

**تيهتني ذاتك وغبت فيك يا الله ☆ ظهرت صفاتك منك وفيك يا الله**
**لمن نحكي سري لمن نريك يا الله ☆ رجعت لسكري وحرت فيك يا الله**
**دخلت للمعنى لكي نراك بيا الله ☆ نديت من أنا لست سواك يا الله**

خرجت للحس نفتش عليك يا الله ☆ ابتديت بنفسي حصلت عليك يا الله
ظهرت في الكل عمن تخفيك يا الله ☆ ومن كان مثلي يستر عليك يا الله
أنت هو الظاهر في ذا العبيد يا الله ☆ أنت هو الباطن كما تريد يا الله
وفي بدء السير وهمت فيك يا الله ☆ ظننتك غيري جاوزت عليك يا الله
حتى نارت شمسي دلت عليك يا الله ☆ نوديت من نفسي قلت لبيك يا الله
خرجت للناس نحكي عليك يا الله ☆ في جميع أنفاسي مولع بك يا الله
خشيت عن قلبي يغفل عليك يا الله ☆ وأنت في قربي حققني بك يا الله
أشغلني بك نفنى عما سواك يا الله ☆ وابقيني بك نغنى حتى نراك يا الله

فأين نظرتك يا أخي من هذه النظرة، وأين فكرتك من هذه الفكرة. فليس الشأن أن ترفع بصرك للخلق، إنما الشأن أن ترى الحق. ما خلقت الأشياء لتراها ولكن لترى فيها مولاها، حتى إذا عرفت الله في الأشياء، كانت الأشياء معك، وأنت مع الله، فتصير أميرا عليها بإضافتك لله عز و جل، وربما تنوب عنه في بعض الأمور كما ينوب المضاف عن المضاف إليه. وقد يرتفع بارتفاعه، لكن مع تحقق الإضافة، هذا إذا كنت مضافاً لله. وإذا كنت مضافاً للخلق فأنت تعرف رتبتهم. قيل:

نصحتك علما باهوى والذي أرى ☆ مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو
فإن شئت أن تحيا سعيدا فمت به ☆ شهيداً وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت بحبه لم يعش به ☆ ودون اجتناء النحل ما جنت النحل
تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا ☆ وخل سبيل الناسكين وإن جلوا
وقل لقتيل الحب وفيت حقه ☆ وللمدعي هيهات ما الكحل الكحل

ولكن ما كان لهم من خيار (**وربك يخلق ما يشاء ويختار**) «القصص: 68»

الفصل الخامس عشر

## في أحوال القوم بعد فنائهم

قال رضي الله عنه:

**مَنْ ضَيَّعَ حِكْمَةَ وَقْتِهِ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَمَنْ قَصَّرَ عَنْهَا فَهُوَ عَاجِزٌ**

العارف ابن وقته لا ابن زمانه، فهو محتاج لحكمة وقته كما يحتاج لحياته. ومن ضيع حكمة الوقت بأن فاته ولم يأخذ منه ما يفيده الفهم عن الله فهو جاهل بهذا المقام. أي لو كان عالما بحكمة الوقت لما ضيعها. فمن جهل شيئا عاداه.

العارف مطلوب في كل الأوقات بأنواع الموافقة، والأوقات كلها حقوق لله على عبده، مضافة للوقت نفسه، حتى إذا فات وضاعت حكمته دخل عليه غيره لحقوقه المضافة إليه. فلا يمكن للعارف أن يقضي حقوق الوقت الماضي في وقت مطلوب بحقوقه. قال في الحكم العطائية: «حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها». إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد. فكيف تقضي فيه حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه. وهذه معاملة العارف مع الحق باطنا وظاهراً، إذ كل وقت مهما قل أو كثر إلا وللحق فيه عليك حق، لأن الأوقات كلها ظروف وأوان حاملة للمعاني والحكم الإلهية. ومن ضيعها ضيع حكمة

لا يمكن استدراكها. ولهذا ينبغي للمريد أن يقف على باب قلبه في كل وقت وحال كي لا تفوته حكمة الوقت.

الدهر بحر له عجائب، والأوقات أمواجه. فلا ينبغي لك أيها العارف أن تفوتك عجائبه وتضيعه بدون أن تفهم ما فيه. وإن فاتك فإنك لم توف بحقه، ولم تقدر الله حق قدره. فمن قصر عن فهم حكمة ما ذكرنا فهو مقصر في الفهم عن الله، لقول المصنف: « من قصر عنها فهو عاجز ». وقد قيل: ينبغي للمريد حالة سيره أن لا يفهم إلا عن الله. أو فيما يقرب إلى الله حتى قيل: « من لا يفهم صرير الباب، ونبح الكلاب، وجريان السحاب، فليس من ذوي الألباب ». فكل يشير إلى معنى:

**وألسنة الأكوان إن كنت واعيا ☆ شهودٌ بتوحيدي بحال فصيحة**

وليس الشأن أن تفهم أيها المريد مجرد الكلام، بل الشأن أن تفهم عدم الكلام، لأن العارف يُلامُ في كل نفس من الأنفاس، وفي كل حال من الأحوال، ومن ملامة الحق لبعض أحبابه ما يُرْوَى في الخبر: أن الحق قال لبعض أحبابه: (**مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني**) إلى آخر ما عاتبه به. وهل ترى أن الله يلوم سوى أحبابه العارفين بهذه الملامة كلا! فلا يلوم إلا من عرفه وحققه في كل شيء شيء. فيكون مطلوبا بالوقوف مع الأدب والفهم عن الله، حتى لا يفوته شيء من حكمة الوقت. والشيء في الجملة أفضل من لا شيء. (**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**) « البقرة: 286 ».

ثم قال رضي الله عنه:

## نِسْيَانُ الْحَقِّ خِيَانَةٌ. وَالْأَشْتِغَالُ عَنْهُ دَنَاءَةٌ

الأمانة عند القوم هي حفظ أسرار الألوهية ودوام المشاهدة. فلهذا كان نسيان الحق عندهم خيانة، وإن كان العارف مطلوبا بالرجوع للناسوت بعد استغراقه في اللاهوت، لكن يرجع إذا تحقق عنده أن الناسوت هو فرع من اللاهوت. وإن لم تتمحض عنده هذه النظرة فلا يحل له الرجوع إليه ولا التمتع به، لأنه يلهيه عن التوحيد المطلق، ويقيمه مقام الإشراك، اللهم إلا إذا رجع له بالله، فلا يحتجب به حينئذ عن حقيقة سره. ولسلطان العاشقين:

**وَلَمْ أَلْهُ باللاهوتِ عن حكمِ مظهري ☆ ولم أنس بالناسوتِ مظهرَ حكمتي**
**فعنّي على النفسِ العقودُ تحكمت ☆ ومني على الجنّ الحدود أقيمت**

فيكون الكون عنده وإن تنوعت مظاهره لم يخرج عن حياطة اسمه الظاهر.

**البحر بحر كما كان في القدم ☆ إن الحوادث أمواج وأنهار**

فلا ينسيه حينئذ ذا عن ذا، وكيف ينسى والنسيان موجة من أمواج ذلك البحر، وإن طرأت عليه تلك الموجة فلا تخرجه من حياطة البحر، إنما يعطيها مستحقها كما هو المطلوب. ومن أجل هذا كان النسيان الملازم للأعراض البشرية لا يعد خيانة. ولو كان خيانة لما وقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكن ما لم يتماد حتى يكون غفلة، والغفلة مذمومة كما تقدم، وربما يشتغل صاحبها عن الحق، ولهذا قال رضي الله عنه: « والأشتغال عنه دناءة ». وعليه

فالمشتغل بما سوى الله ضعيف الحزم، خسيس القدر، دَنِيءُ الهمة، لا شأن له في الملكوت الأعلى. وقدر الهمة على قدر تعلقها. فلو كشف عن مقامه لأشفق من حاله.

الحق عز وجل ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه، ومن أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله في قلبه. ومن اشتغل عن الله وتغفل عنه، فلا يُعْتَبَرُ عند الله دنيا وأخرى، ولا يزكيه ولا ينظر إليه وإن **(قال رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)** «طه: 126».

إياك أخي أن تشتغل بغيره إن فتح لك باب النظر إليه، وتعرف لك في خلقه، وإياك أن يردك عنه ما ليس بموجود معه. بل ولو كان هنالك موجود لا ينبغي لك أن يردك عن التوجه إليه واسمع قول من قال:

**لا شيء يثني عنائي في محبتهم ☆ ولا الصوارم في الصدور ورماح**

ولسلطان العاشقين في هذا المعنى:

**وما ردّ وجهي عن سبيلك هولُ ما ☆ لقيت ولا ضَرَّاءُ في ذاك مست**
**ولا حام لي في حمل ما فيك نالني ☆ يؤدي لحمدي أو لمدح مودتي**
**قضى حسنك الداعي إليك احتمال ما ☆ قصصت وأقصى بعد ما بعد قصتي**

فمن ذاق حلاوة الحضور، لا يجد دونه سرورا حتى يستبدله به، لقول المصنف رضي الله عنه:

## الْحُضُورُ مَعَهُ جَنَّةٌ، وَالْغَيْبَةُ عَنْهُ نَارٌ

لا والله إن الحضور معه أعز من تلك الجنة وما احتوت عليه، لأنها لم تساو لحظة من لحظات شهوده.

الحق من وراء ذلك لا يحتمل التصوير إلا من حيث التعبير، لأنه لم يمر على أسماع الخلق ما أشرف من الجنة، كما لم يمر على أسماعهم ما أشد عذابا من النار. ولهذا أخبر المصنف أن الحضور معه جنة والغيبة عنه نار، وهذه العبارات لم توف بغرضه إلا أنه استعملها عند فقدان ما ينوب عنها، وكل من يحصل على مرتبة المعرفة ويذوق حلاوة الحضور مع الله عز وجل، يتعذر عليه فهم ما ذكرناه، مع أن الحضور في الدنيا شبيه بالجنة. لكن من لم ير يوسف لم يعذر يعقوب:

**ولو كنت في النعيم وفقدت حسنها ☆ فَنَبْدِلُهُ بالجحيم إذا نراها فيه**

ولو كان يعلم السامع أن الجنة وما احتوت عليه رشفة من جماله، وأن كل المحاسن بعض محاسنه، لما استغرب ما ذكرناه على حد ما قيل:

**فأدر لحاظك في محاسن وجهه ☆ تلق جميع الحسن فيه مصورا**
**ولو أن كل الحسن يكمل صورة ☆ ورآه كان مُهَلِّلاً ومكبرا**

وقيل أيضا:

**لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحة ☆ في وجهه نسي الجمال اليوسفي**
**أو لو رآه عائداً أيوب في ☆ سنة الكرى قدما من البلوى شفي**
**كل البدور إذا تجلى مقبلا ☆ تصبو إليه وكل قَدٍّ أُهْيَفِ**
**فسبحان من ظهر في المحاسن كلها ☆ فوحد ولا تشرك به فهو واسع**

هكذا فلتعرف النفس وإلا فلتصمت.

يا غَافِلاً عن الله أرجع البصر هل ترى في وجود الحق عز وجل من فطور حتى يكون فيه لما سواه من ظهور، (**ثم ارجع البصر كرتين**) «الملك: 3» فلا محالة (**ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير**) «الملك: 4» حيث لا يجد متجليا سوى الواحد الكبير.

الجنة لا تسع العارف فضلا عن أن تسع الحق. والعارف لا يسعه إلا الحق، كما أن الحق لا يسعه إلا العارف. قال ﷺ: (**لي وقت لا يسعني فيه غير ربي**) وقال عز من قائل: (**لا يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**) وهو قلب النبيء لا محالة. فتأمل قول النبي حيث قال: (**لا يسعني إلا الله**) وانظر قول الحق حيث قال: (**لا يسعني إلا قلب عبدي المؤمن**) فلا يسع الوسع إلا الواسع. وذلك شيء من وراء العقل، خارج عن الحصر والقصر. لا تضبطه نقول ولا تحصره عقول:

**تنقل إلى حق اليقين تنزها ☆ عن العقل والنقل الذي هو قاطع**

ثم قال رضي الله عنه:

**الْقُرْبُ مِنْهُ لَذَّةٌ، وَالْبُعْدُ عَنْهُ حَسْرَةٌ**

القرب من الله عز وجل لذة لا يمكن التعبير عنها، يشعر بها القريب من نفسه حتى تخرجه لذة القرب المومئ إليها عن كل لذة من شهواته ومألوفاته، بسبب ما حصل له من نسيم القرب ولاح عليه من أنواع الرضوان، حتى ربما يستغني القريب بما أصاب من لذة الاقتراب عن الوصول نفسه بسبب ما حصل عليه، ولبعضهم:

**نهاري أصيل كله إن تنسمت ☆ أوائله منها برد تحيتي**
**وليلي فيها كله سحر إذا ☆ سرى لي منها فيه عرف نسيمتي**
**وإن طرقت ليلا فشهري كله ☆ بها ليلة القدر ابتهاجا بزورتي**

**وإن قربت داري فعامي كله ☆ ربيع اعتدال في رياض أريضة**
**وإن رضيت عني فعمري كله ☆ زمان الصبا طيبا وعصر الشبيبة**

هذا حال صاحب القرب فهو في لذة لا تماثلها لذة، كما أن المتباعد عن الله في حسرة لا تماثلها حسرة.

يروى في الخبر أن (**أهل الجنة في الجنة يعوون كما يعوي أهل النار في النار**) إذا احتجب عنهم الحق عز و جل. والجنة سجن على من لم يكن الحق أنيسه، والنار نعيم على من كان الله جليسه. والنعيم مع البعد جحيم. والجحيم مع القرب نعيم. ولهذا قالت «رابعة العدوية» - رحمة الله عليها - لمن وجدته يذكر الجنة: «التمس الجار قبل شراء الدار».

**ما جنة الخلد إلا في مجالسهم ☆ فيها ثمار وأطيار وأدواح**

ثم قال رضي الله عنه:

## وَالأُنْسُ بِهِ حَيَاةٌ، وَالإِيحَاشُ مِنْهُ مَوْتٌ

المستأنس بالله عز و جل حي، وحياته حياة أبدية مستمرة، حصل على ذلك بسبب مجاورته للحق عز و جل والإستئناس به، «فمن جالس العطار طاب بطيبه».

الحق عز و جل لا يجالس الأموات، أي من عميت بصائرهم، وطمست سرائرهم بوجود الخلق والاستيحاش من الحق. فبسبب معاشرتهم للخلق ماتوا بموتهم. الخلق أموات غير أحياء وخشب

مسندة ( **تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون** ) « الأعراف : 198 » ولو كانوا يبصرون لأبصروا وجود الحق الذي هو أقرب إليهم من أبصارهم. لهم قلوب لا يعقلون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. قال ﷺ : ( **لاتجالسوا الأموات** ).

كل ما سوى الله ميت إلا المستأنس بالله فهو حي لا محالة، ولو بقي في الوجود منفرداً بنفسه، فإنه لا يستوحش لكونه مستأنسا بالله. نعم هو الآن وحده. « وللجيلاني » - رضي الله عنه - في هذا المعنى :

**حضرت مع الأقطاب في حضرة اللقا ☆ فغبت بـه عنهم وشاهدتـه وحـدي**

فمن أجل هذا كان العارف لا يستوحش من شيء لحضوره مع محبوبه في كل شيء. ولو فقده لاستوحش وضاق به الوجود ولو كان بين المَلأ الأعلى. ولهذا تجد المستأنسين بالله في غنًى عن الخلق من كل الوجوه.

قال « أبو الأشهل » - رحمة الله عليه - : « رأيت غلاماً بطريق مكة - شرفها الله تعالى - قائما يصلي عند بعض الأميال، قد انقطع عن القافلة فوقفت أنتظره فأطال، فلما سلم قلت له : السلام عليك ! قال : وعليك السلام ! فقلت له : إنك انقطعت عن الركب، ألك رفيق يؤانسك حتى تلحقه ؟ فبكى وقال : نعم. فقلت له : وأين هو ؟ فقال : أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي. قال : فعرفت أنه عارف وقلت له بعد : أمعك زاد ؟ قال : نعم. قلت : فأين هو ؟ قال : في قلبي، إخلاص لربي. فقلت له : هل لك في مرافقتي ؟ فقال الرفيق يشغل عن الله، ولا أحب أحداً يشغلني عنه طرفة عين. فقلت له : من أين تأكل ؟ قال : الذي غذاني في ظلمة الأحشاء صغيراً قد تكلف برزقي

كبيرا، فمتى احتجت إلى الطعام والشراب حضر بين يدي. فقلت له: هل لك حاجة؟ قال: نعم، إذا رأيتني بعد هذا اليوم فلا تكلمني. فقلت له: ادع لي. قال: حجبك الله عن كل معصية وشغلك بما يقربك إليه. فقلت له: فأين اللقاء بعد هذا اليوم؟ قال: ما بقي بعد هذا اليوم لقاء، فإن كنت من أهل القرب فاطلبني غداً في منازل المقربين. ثم غاب عني، فلم أره بعدها».

فانظر يا أخي حال المستأنسين بالله. لا تؤلمهم الأقدار، ولا تستوحشهم القفار.

وقد سئل الشيخ «ماجد الكردي» - رحمة الله عليه - عن الأنس. فقال: «من اشتاق لربه تبارك وتعالى فاسمه آنس، ومن أنس طرب، ومن طرب قرب، ومن قرب سار، ومن سار حار، ومن حار طار، ومن طار قرت عينه بالإقتراب».

ولهذ قال المصنف رضي الله عنه:

## الْفُتُوَّةُ أَنْ لاَ تَشْتَغِلَ بِالْخَلْقِ عَنِ الْحَقِّ

الفتوة النافعة أن لا تشتغل بما سوى الله عن الله. أي بالفاني عن الباقي، لأن الخلق زائلون لا محالة، وكل من وقف معهم احتجب عن الحق. والفتوة هي أن تغيب عن الغير في شهود الواحد الكبير. «ما خلقت الأشياء لتراها ولكن لترى فيها مولاها». قال في الحكم العطائية: «أباح لك أن تنظر ما في المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات». (**قل انظروا ما ذا في السموات**) «**يونس: 101**» فتح لك باب الإفهام ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام.

**مـــا بنيت لـــك العـــوالم إلا ☆ لتراهـــا بعين مـــن لا يراهـــا**
**فـارق عنها رقي من ليس يرضى ☆ حالـــة دون أن لا يرى مولاهـــا**

إياك أخي الوقوف مع ظاهر الأشياء فإنها قائلة بلسان حالها ( **إنما نحن فتنة فلا تكفر** ) « البقرة : 102 » فمن نظر الكون من حيث باطنه كان عليه رحمة، ومن نظره من حيث ظاهره كان عليه نقمة ( **باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ) « الحديد : 13 » . ولهذا كان الاشتغال بالخلق مذموما، وكيف لا يشتغل بالخلق من عميت بصيرته عن الواحد الحق. فهو لا يرى إلا العبيد بخلاف المشتغل بالحق، فهو فارغ القلب من غيره، وفي ذلك قلنا :

**فمن عرف التحقيق غاب عن غيره ☆ فصـــار لـــه شغلا لم يرض بتركـــه**

فالعارفون اشغتلوا بالله عز و جل حتى صار لهم دينا ودنيا، وقد قيل في هذا المعنى :

**كانـــت لقلبي أهـــواء مفرقـــة ☆ فاستجمعت مذ رأتك العين أهْوائي**
**فصـــار يحســـدني من كنت أحســـده ☆ وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي**
**تركت للنـــاس دنيـــاهم ودينهـــم ☆ شغـــلا بـــك يـــا ديني ودنيائي**

ثم قال رضي الله عنه:

## الْفُتُوَّةُ رُؤْيَةُ مَحَاسِنِ العَبِيدِ، وَالْغَيْبَةُ عَنْ مَسَاوِيهِمْ

من صفاء القلب رؤية محاسن العبيد والغيبة عن مساويهم، إلا أن مراتب العارفين انحصرت في نظرات ثلاثة، وكلها راجعة إلى الفتوة على أقسامها: فرتبة المريدين الفناء في أفعال الحق والغيبة عن أفعال الخلق. فإن تحقق المريد في هذه الرتبة لم يجد للخلق مساوىء لغيبته عن أفعال الخلق في شهود الفاعل لها وهو الحق عز وجل، وإن تعددت الأفعال، فالفاعل لا يتعدد. قال سلطان العاشقين في هذا المعنى – رضي الله عنه – بعد أن كرر كلاما في ظهور الأفعال على اختلافها وتباينها من طاعة وعصيان، وشرك وإيمان، وربح وخسران، ووجود المتضادين في آن واحد:

**وفي الزمن الفرد اعتبر تلق كل ما ☆ بدا لك لا في مدة مستطيلة**
**وكل الذي شاهدته فعل واحد ☆ بمفرده لكن بحجب الأكنة**
**إذا ما أزال الستر لم تر غيره ☆ ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة**
**وحققت عند الكشف أن بنوره اهـ ☆ تديت إلى أفعاله بالدجنة**

ولهذا يقال: «من نظر الخلق بعين التحقيق أعذرهم، ومن نظرهم بعين التشريع مقتهم». وينبغي لطالب الله أن تكون له عينان: فعين الحقيقة يرى بها الخلق، وعين الشريعة يرى بها نفسه ليقوم بأدب الحق. وقد قيل: إن العارف اللسان يجد والقلب يود لغيبته عن عمل الخلق في شهود العامل لها. ولا يطيق المريد أن يرى محاسن الخلق بدون أن يفنى في شهود الأفعال لوجود المخالفة

الجارية في نظره إلا إذا دخل هذا الميدان، وتخلق بهذا الشأن، ورد الأشياء لأصولها والأفعال لفاعلها، فيجد الكل حسنا لا محالة لما قيل:

**وكل قبيح إن نسبت لفعله ☆ أتتك معاني الحسن فيه تسارع**

فبهذه النظرة يجد الكل حسنا لا غير، ويقول كمن قال:

**الكل جمال الله ليس فيه شك ☆ إلا وُشاةُ النهى غلب عليهم الشك**

**يا قاصد أعين الخبر إن حققت زال الشك ☆ الذات عين الصفات ما في المعاني شك**

وإن لم يصل المريد إلى هذه الرتبة فهو على كل حال مطلوب بالكف عن تتابع مساوىء الخلق، لأن مساويه أكثر من غيره لو أنصف من نفسه، ولو رجع إلى فعله من أوله إلى أخره لوجد فيه ما يغنيه عن مساوىء العبيد. قال سيدي « عبد الرحمٰن المجدوب » - رحمة الله عليه -:

**آش اداني في الناس آش ادى الناس في**

**العيب اللّي راه في الناس مجموع راه في**

وقال أيضا: إن الإنسان إذا أشار بأصبع إلى غيره فإن الأصابع الثلاثة من يديه يشيرون إليه. ولولا ستر الله لافتضح كل من في الوجود:

**ولو كشف الإله عيبك للورى ☆ لرأت الخلائق منك العجائب**

ثم قال رضي الله عنه:

**عَيْشُ الأَوْلِيَاءِ فِي الدُّنْيَا عَيْشٌ طَيِّبٌ، فَأَبْدَانُهُمْ تَتَمَتَّعُ بِأَثَرِهِ، وَأَرْوَاحُهُمْ تَتَنَعَّمُ بِنَظَرِهِ**

أولياء الله عز وجل وصفوته من خلقه عيشهم في الدنيا عيش خصيب. فأجسامهم تتنعم في آثاره وبدائع حكمته ولوامع صفاته. ومن ذلك فتح لأرواحهم باباً من الملكوت الأعلى، فهب عليهم نسيم من الجبروت الأسنى، فانتعشت الأرواح وتمتعت الأشباح. وكيف لا وهو نسيم الاقتراب المقتضى لرفع الحجاب. ولبعضهم رضي الله عنه:

**نسمة هبت لنا من حي مي ☆ رفعت قوتها كل الغطي**
**أشرقت والله شمس ذاتها ☆ فمحت ظل السوى عن مقلتي**
**لامني عاذلي فيها سفها ☆ فهو معذور لأنه خلي**
**آه لو ذاق لذيذ شربها ☆ لغدا يسمو بها في كل حي**

وقد قلت في ذلك:

**ترانا بين الأنام لسنا كما ترى ☆ تالله لفوق الفوق أرواحنا تجلى**
**لنا من عقل العقول عقل فيا له ☆ جوهر فريد الحسن يعتبر عقلا**
**لا يعقل ما سوى الله جل ثناؤه ☆ فهذا هو العقل يعقل ولو قلاَّ**

عند ما هب عليهم نسيم الإتصال فتحت الأبصار ورفعت الأستار، وأشرقت الأرض بنور ربها، وفجرت الأنهار، أنهار السرور من البطون والظهور، والغيبة مع الحضور، تبسمت أركان الوجود القائم بها كل موجود، ذلك نهر من ماء غير آسن، هو نفس التلوين (**تبارك الله أحسن الخالقين**) « المؤمنون: 11 » حياة الوجود، وروح

الودود. ( **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ) « الأنبياء : 30 » ونهر من لبن لم يتغير طعمه، وإن مع وجود التلوين فهو واحد في اثنين، مستخرج من بين فرث ودم ( **مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان** ) « الرحمن : 20 » ذلك نهر اللبن الخارج من بين اثنين، الجامع بين المتناقضين، المأخوذ بسهم الأفكار، وصفاء الأسرار من بواطن الموجودات ( **نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون، وعليها وعلى الفلك تحملون** ) «المؤمنون: 21» ونهر من خمر الإيقان المتخذ منه سكراً ورزقا حسنا. سكراً للعاشقين ورزقا للموحدين، الناس فيه فنون. هذا به هيام وهذا به جنون. ( **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ) « النساء : 43 » ونهر من عسل مصفى، من صفاء التوحيد، وسقوط التقييد، المستخرج من وحي الإلهام مع دقة الأفهام. ( **وأوحى ربك إلى النحل** ) نحل الأرواح ( **أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون** ) جبال الأشباح ( **ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً** ) « النحل : 68 - 69 » أي ثمرات التلوين حسب مقتضى صفة التكوين ( **واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين** ) « الروم : 21 ». وبعد تمكن الأرواح من أواني الأشباح ( **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ) « النحل : 69 » أي لمن لا يتقيد بالإحساس واختلاف الأجناس، فعند ذلك أخذت الأفكار، وسلكت سبل ربها من سر الأزهار ( **تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل** ) « الرعد : 4 » فيا له من ميدان حارت فيه الأذهان وقصر البنان، وإن

نطق اللسان نطق بـ «ليس في الإمكان أبدع مما كان». فيا سبحان الله، الماء واحد والزهر ألوان. فمن كشف له الله عن حقيقة الأثر وما احتوى عليه من أسرار المؤثر فاز بكل خير.

فكيف لا تتنعم أجسام أهل الله في أثره وأرواحهم في مشاهدته! وقد تقدم لك ما اختصهم الله به من العلم (**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**) «الزمر: 10» فكيف لا تتنعم الأبصار في بدائع هذا الأثر، أم كيف لا تتشوق الأفكار لما بطن فيه من الأسرار! خصوصا لما علمت أن المؤثر تستر بوجود الأثر، تشوقت أرواحهم وطاشت أسرارهم حيث دعاهم من (**ليس كمثله شيء**) (**ألم نكن معكم قالوا بلى**) «الحديد: 14» طرق قلوبهم طارق العناية الأزلية (**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**) «والتين: 4» فيا حبذا ما حصلوا عليه، وما أحسن قول «عثمان ابن مرزوق» حيث سئل عن حقيقة السر ما بين العاشق والمعشوق قال: إذا هبت رياح السعادة، وألقى برق العناية على رياض القلوب، وأمطر ودق الحقائق من جلال سحائب الغيوب، ظهرت فيها زهرة قرب المحبوب، وينعت بهجة أنوار نيل المطلوب، فوجدت ريح القرب في لذة المشاهد، واستجلاء الحضور في التقدم بالسماع، وأنست نار الهيبة التي قد أضرمها صفو المحبة مع الشخوص عن الأنس إلى نور الأزل بصولة الهيمان، وقامت بقدم البقاء في حلوة الوصل على بساط المسامرة بمناجاة يشيب بها الكون بصفاء اتصال تغرف نهاية الخبر في بداية العيان، وتطوي حواس الحدوث في بقاء الأزل، هناك رسخت أرواحهم في غيب الغيب، وغاصت أسرارهم في سر السر، فعرفهم

مولاهم ما عرفهم، وأراد منهم مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم، وخاضوا بحار العلم اللدني بالفهم الغيبي لطلب الزيادة. فانكشف لهم من مذخور الخزائن تحت كل ذرة من ذرات الوجود. علم مكنون، وسر مخزون، وسبب متصل بحضرة القدس، يدخلون منه على سيدهم عز وجل، فأراهم من عجائب ما عنده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم قال رضي الله عنه:

**أَبْنَاءُ الدُّنْيَا تَخْدُمُهُمُ الْعَبِيدُ وَالإِمَاءُ، وَأَبْنَاءُ الآخِرَةِ تَخْدُمُهُمُ الأَحْرَارُ وَالْكُرَمَاءُ**

الدار داران: دار عاجلة ودار آجلة، دار الدنيا ودار الآخرة. والناس قسمان: أبناء الدنيا وأبناء الآخرة. فأبناء الدنيا في دنياهم حائزون للفخر والرئاسة والجاه، وتخدمهم العبيد والإماء لا غير، ولا يخدمهم إلا من كان من جنسهم، أي من أبناء الدنيا، فهم عبيد على كل حال، وليس لهم سيطرة إلا على من كان من حزبهم ممن يريد أن يتعزز بالفاني، ويرى أن عز الدنيا دائم. وهذا غاية في قصوره **(أيبتغون عندهم العزة، فإن العزة لله جميعا)** « النساء : 139 » وأما أبناء الآخرة فهم في روضة لا خبر لهم بالدنيا ولا بأهلها، ولا بمالكها ولا بمملوكها، والكل عندهم في خوض يلعبون... دخل بعض الوزراء على مولانا « عبد القادر الكيلاني » - رضي الله عنه - وهو

في مجلسه، فأقبل الشيخ عليه بالكلام الغليظ الذي لا مزيد عليه، ولما انصرف الوزير تكلم معه في ذلك بعض أصحابه وقال له: أغلظت عليه بالكلام، ألم تجد عبرة أسهل من ذلك؟ فقال الشيخ - رضي الله عنه - : إنه من أبناء الدنيا ولا حاجة لنا بها ولا بأهلها. أو كما قال - رضي الله عنه - .

أنظر - بارك الله فيك - كيف كان غناؤهم عن الكل لما هم عليه من أنواع القربات، والإقبال على الله والأنس به. ولو أرادت الدنيا أن تخدمهم ما رضوا بخدمتها، لأنها ليست أهلا لخدمتهم، وليس لها نشر في مجلسهم. فكانت الدنيا تطلبهم لأنها أمرت بطاعتهم كما أمروا بالزهد فيها. يقول الحق تبارك وتعالى: ( **يا دنيا أخدمي من خدمني، وأتعبي من خدمك** ) فلهذا زهدوا فيها وقصدوا الله، فطلبتهم الدنيا فلم تجدهم، فأخذت في طلبهم لتخدمهم خشية أن تخرج عن طاعة الله حيث أمرها بخدمتهم، ولما طلبتهم وجدتهم أحرارا كرماء سبقوها لذلك الشأن ( **والسابقون السابقون أولائك المقربون** ) « الواقعة : 10 - 11 » ولا زالت تتملق لهم وتسألهم المسامحة لأن تخدمهم وهم في غنى عنها وعن خدمتها، حيث أبدلهم الحق تبارك وتعالى بما هو أشرف منها من الأحرار الكرماء.

وأنت ترى من عهد النبوة إلى يومنا هذا المنتسبين إلى الله تخدمهم خيار الخلق، أي ممن هم من جنسهم المشرفين على مقامهم من غير أن يطلبوا منهم ذلك. وإنما سخر لهم قلوب العبيد تعظيما وإجلالاً لجنابهم، وتراهم بين الأنام والأنوار تلوح على جباههم من سر الشهود ( **سيماهم في وجوههم من أثر السجود** ) « الفتح : 29 ». وقد قال فيهم صاحب الحكم نفسه:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا ☆ هم السلاطين والسادات والأمراء
فاصحبهم وتأدب في مجالسهم ☆ وخل حظّك مهما خلفوك ورا

فأهل الله هم الملوك لا محالة وما سواهم حقير كائنا من كان ولو ملك الدنيا بأسرها. وقد قال بعضهم في هذا المعنى:

للقوم سر مع المحبوب ليس له ☆ حد وليس سوى المحبوب يحصيه
به تصرفهم في الكائنات فما ☆ شاء شاؤوا وما شاؤوا ينهيه
إن كنت تعجب من هذا فلا عجب ☆ لله في الكون أسرار ترى فيه

لا ملك أعظم من ملكهم، ولا شأن أعظم من شأنهم، فشأنهم هو الشأن وما سواه امتحان.

مسكين من فاته ما هم عليه لأن من فاته ما هم عليه ينبغي له البكاء والانتحاب. كما قال سلطان العاشقين - رضي الله عنه -:

وفي سكرة منها ولو عُمْر ساعة ☆ ترى الدهر عبداً طائعا ولك الحكم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحيا ☆ ومن لم يمت سكرانا بها فاته الحزم
على نفسه فليبك من ضاع عمره ☆ وليس له فيها نصيب ولا سهم

ثم قال رضي الله عنه:

## مَنْ حُرِمَ احْتِرَامُ الأَوْلِيَاءِ ابْتَلاَهُ اللهُ بِالْمَقْتِ بَيْنَ خَلْقِهِ

أولياء الله عرائس الله في أرضه، ومن غيرته عليهم أخفاهم في خلقه تحت قبابه لا يطلع عليهم أحد غيره، وهم أهل القرب والعناية. قال غيرة عليهم: (**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب**) ومن بارز الله باء بغضبه.

أولياء الله أمناء الله في خلقه، وبدل أنبياته وسفراته، فمن اطلع على أحد منهم ولم يحترمه ابتلاه الله بالمقت بين خلقه، لأن احترامهم واجب على كل مؤمن بإضافتهم لله ورسوله. قال ﷺ: (**غابتان مسمومتان لا يسلم من طعنهما: أهل بيتي وأولياء أمتي**). فمن خاض في أعراضهم تعرض للهلاك، لأن لحومهم سم قاتل. وليس على المؤمن إلا احترامهم وأن يسعى في السلامة حيث وجدها. لأن الله غيور على أهل نسبته ولو كانوا كاذبين، فكيف إذا كانوا صادقين. وقد قلت فيهم:

**هم العروة الوثقى بهم فتمسكن ☆ هم أمان أهل الأرض في الخلا والملا**

وما ضربت الذلة والمسكنة على بني إسرائيل إلا بسبب عدم احترامهم لأنبيائهم وأوليائهم فصاروا كما سمعت عنهم (**وضربت عليهم الذلة والمسكنة**) المشار إليهما (**وباؤوا بغضب من الله**) « البقرة: 61 » وقد قلت:

**فمن عظم أهل الله كان معظما ☆ ومن هانهم فقد تعرض للمكر**

إياك أخي أن تشتغل بأهل نسبة الله في حالة كونهم مشتغلين بالله. وإن كان ولا بد من الاشتغال فاشتغل بنفسك وبملامتها، وملامة أهل المعاصي المرتكبين للفظائع، لعل الله يجعل الخير على يديك، وتدخل فيمن قال فيهم عز من قائل: ( **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ) « آل عمران: 110 ».

ثم قال رضي الله عنه:

## مَنْ قَطَعَ مَوْصُولاً بِرَبِّه قُطِعَ بِهِ، وَمَنْ شَغَلَ مَشْغُولاً بِقُرْبِهِ أَدْرَكَهُ الْمَقْتُ مِنْ حِينِهِ

أي من تسبب في قطع موصول بربه أو أشغل مشغولا بقرب الله عن قربه فقد تعرض لمكر الله، وإنه لا محالة يدركه المقت من حينه، ويقطع به ويسقط من عين الله عز وجل، لأن أولياء الله يكونون حالة قربهم واشتغالهم بالله في غيبة عن الخلق، ومن تسبب في إرجاعهم لما خرجوا عنه فقد تسبب في قطع الوصلة بين الحبيب ومحبوبه. فاحذر أيها المريد من ذلك فإن الله عز وجل غيور على عباده الموصولين به.

فحافظ - بارك الله فيك - على إعانتهم فيما هم عليه، وبادر في خدمتهم وإحسانهم ومواساتهم ما استطعت.

**تسبب في نفع الخلق تحض بنفعهم ☆ خُصُوصًا عبيد الله من بـه شغلوا**

أي خصوصا المنقطعين في الخلوات، المشتغلين بالإسم الأعظم الفانين عن الخلق المستغرقين في شهود الحق، الشاخصين إلى عظمته. فإن أردت السلامة أخي فتسبب فيما يجمع همتهم على الله، ويقوي عزيمتهم، ( **والله في عون العبد، ما دام العبد في عون أخيه** ).

الفصل السادس عشر

# في أقوال القوم بعد فنائهم

قال رضي الله عنه:

## الْصَّحْوُ وَالْمُرُوءَةُ مُوَافَقَةُ الإِخْوَةِ إِلاَّ مَا يُحَذِّرُهُ الْعِلْمُ

الصحو والسكر من أحسن مقاصد المريدين، إلا أن السكر مقدم، وقد تقدم الكلام عليه وهو المعتمد، إذ لا يكون الصحو إلا بعد التمكن في السكر، وإذا تحقق سكر المريد في مقتضى التوحيد بما يسمى سكرا عند القوم، فيكون مطلوبا بالرجوع إلى البقاء وهو المعبر عنه بالصحو، وذلك مما يشق على المريد في الغالب مما هو عليه من وجود الاصطلام، ولما كان لسان المعرفة يدعو إلى الثبات بعد الفناء كما تقدم، تعين الرجوع. وقد يسوغ له ذلك، لكن تتعذر عليه موافقة الإخوة فيما يحذره العلم. وقد يحذر العلم من كل كلام غير معقول المعنى أو فيه رائحة الهلاك. وليس للمريد في ذلك الوقت إلا بما يجب خلافه، لكن الصحو والمروءة يقتضيان موافقة الإخوة، لأن في مخالفتهم الضرر البين، ولن يصاب العارف بسبب إفشائه بعض الحقائق إلا من هذا الباب، أي بسبب عدم موافقة الإخوة فيما يحذرونه، ويكون ذلك مخلا بمروءته، وفيما وقع فيه « الحلاج » - رضي الله عنه - من إفشاء بعض ما يجب كتمانه بعد أن حذره إخوانه كالشيخ « الشبلي » والشيخ « الجنيد » وغيرهما، ومن عاصرهم من الأصدقاء كفاية:

**بالسر إن باحوا تباح دمائهم ☆ وكذا دماء البائحين تباح**

ومما نقله شارح رائية « الشريشي » عن « ابن خلدون » - رحمة الله عليهما - : أن الحلاج قتل بفتوى أهل الشريعة وأهل الحقيقة. ثم قال: إنه باح بالسر فوجبت عقوبته. وقال الشيخ « أبو العباس بن البنا » - رضي الله عنه -: اتفق على قتل الحلاج الجميع بعد أن اختلفوا فيه. وممن اختلف فيه الجنيد والشبلي والجريري، فإن هذا أفتى بضربه وإطالة سجنه، وأفتى الجنيد والشبلي بقتله. وقد قال الحلاج نفسه: « ما على المسلمين إلا قتلي ». وقد روى ذلك الشيخ « أبو محمد بن عبد السلام المقدسي » - رضي الله عنه - قال: دخل الحلاج يوما إلى جامع « المنصور » ببغداد وقال: أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا مني حديثا، فاجتمع عليه خلق عظيم، فمنهم محب ومنهم منكر، وقال: اعلموا أن الله قد أباح لكم دمي فاقتلوني. فبكى القوم، فتقدم إليه « عبد الله الودود » الزاهد وقال: يا شيخ كيف نقتل رجلا يصلي الخمس ويصوم، ويقرأ القرآن؟ فقال: يا شيخ المعنى الذي يبيح الدماء خارج عن الصلاة والصيام وقراءة القرآن، فاقتلوني تؤجروا وتستريحوا، فعندئذ تكونون أنتم مجاهدين وأنا شهيدا. ثم ذهب، فتبعته إلى داره وقلت له: يا شيخ ما معنى هذا؟ فقال: يا فتى ما على المسلمين إلا أن يقتلوني، واعلم أن قتلهم إياي قيام بالحدود ووقوف مع الشريعة، وان من تجاوز الحدود أقيمت عليه الحدود. وفي معنى ذلك قلت:

**أباحت دمي إذ باح قلبي بحبها ☆ وحل لها في شرعها ما استحلت**
**وما كنت ممن يظهر السر إنما ☆ عروس هواها في ضميري تجلت**

فشاهدتها فاستغرقتني بفكرة ☆ فغبت بها عن كل شيء وجملة
وحلت محل الكل مني بكلها ☆ فإياي إياها إذا ما تبدت
ونمت على سر فكانت هي التي ☆ عليها بها من البرية نمت
إذا سئلت من أنت قلت أنا الذي ☆ بقائي إذا أفنيت فيك هويتي
إذا الحق في عشقي كما أن سيدي ☆ هو الحق في حسن بغير معيتي
فإن أك في سكر شطحت فإنني ☆ حكمت بتمزيق الفؤاد المفتت
ولا غرو إن وطئت نار تحرقي ☆ ونار الهوى للعاشقين أعدت
ومن عجب إن الذين أحبهم ☆ وقد أغلقوا يد الهوى باعنتي
سقوني وقالوا لا تغني ولو سقوا ☆ جبال حنين ما سقوني لغنت

وروي عنه أنه قال حين القتل والصلب: «اللهم إنك أنت المتجلي من كل وجهة، المتخلي عن كل وجهة، بحق قيامك بحقي، وبحق قيامي بحقك الذي يخالف قيامك بحقي، لأن قيامي بحقك ناسوتية، وقيامك بحقي لاهوتية، وكما أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك غير مماز جة لها، فلاهو يتك مستولية على ناسوتيتي، غير مخامرة لها، وبحق قدمك على حدوثي تحت ملابس قدمك، أن ترزقني شكر ما أنعمت به علي، حيث غيبت أغياري بما كشف لي من مطالعة وجهك، وحرمت على غيري ما أبحته من النظر من مكنونات سرك، وهؤلاء عبادك اجتمعوا لقتلي تقربا إليك وتعصبا لدينك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت به، فلك الحمد دائما». ثم أنشد:

اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي

إن عنـد محـو ذاتي من أجـل المكرمـات
وبقـائي في صفـاتي مـن قبيـح السيـآت
سئمت نفسي حياتي في الرسـوم الفانيـات
فـاقتلوني واحرقـوني بعظـامي الباليـات
ثم مروا برفـاتي في القبـور الدارسـات
تجـدوا سر حبيبي في الطوايـا الباقيـات

ثم فعل به ما قيل. الخ.

ثم قال رضي الله عنه:

**الْحَدِيثُ مَا اسْتُدْعَيْتَ مِنَ الجَوَابِ، وَالكَلَامُ مَا صَدَّقْتَ مِنَ الْخِطَابِ**

ذكر في هذه الحكمة حد الكلام لمن أراد التكلم. فأخبر أن الحديث ما استدعيت من الجواب، فلا تخرج عن حده ولا تميل إلى غيره. فكل حديث يطلبك بمقتضاه.

**إن قلت قـولا فكـن لبيبـا ☆ وكل قـول لـه جـواب**

فكل إنسان في كلامه مرهون، وقلبه بلسانه مقرون. فما لا يستدعيك من الجواب إلى فائدة فيه، ولا إلى شخص تحكيه فدعه. فأنت تعلم الحال وما يستحق من الجواب، فإن السائلين على طبقات، إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال، فافهم أسئلتهم من كل

الوجوه، فجاوب لما استدعيت له، فيكون حديثك حديثا مفيدا. وكذلك الكلام ما أصدقك من الخطاب، أي إذا أردت الكلام تكلم بما يعود عليك بالصدق، ولا تتكلم بما يعود عليك بضده، فيكون فتنة عليك وعلى من سمعه. قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: (أأحدث بكل ما أسمع منك يا رسول الله؟ فقال: **إلا بحديث لم يبلغ عقول القوم فيكون على بعضهم فتنة، أتريدون أن يكذبوا الله ورسوله!**) فمن أجل هذا يجب على المريد أن لا يتكلم إلا بما يعود عليه بالنفع وعلى غيره، ولا يذكر كل ما علم عنده. قال في الحكم العطائية: « من رأيته معبرا على كل مشهود، وذاكرا لكل معلوم، فاستدل بذلك على وجود جهله ». والمعنى أنه ليس بحكيم، لأن الحكيم من نزل الناس منازلها، وأعطى الأشخاص مستحقها، لأن عقول الناس متباينة، وطباقتهم مختلفة، وطعام الرجال يضر بالصبيان. فطعام الأب لا تسعه حوصلة إبنه. فكل طعام معد لأهله، وكل علم مرهون إلى وقته. قال ﷺ: (**إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا أظهروه، أنكرته أهل الغرة بالله**). نعم يظهرونه لأهله شيئا فشيئاً، وشيئًا دون شيء. ومن ذكر علمه عند كل شيء فهو جاهل ما يستحقه ذلك العلم من التعظيم، وفي إهانته يحصل من الضرر ما لا يخطر ببال المتكلم به. قال الشاعر:

**ولو أن أهل العلم صانوه لصانهم ☆ ولو عظموه في النفوس لعظموا**

وقال غيره:

**سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ☆ ولا أنشر الدر النفيس على الرمم**
**فإن يسر الله الكريم بفضله ☆ وصادفت أهلا للعلوم ولم أكم**

**جلست مفيداً واستفدت ودادهم ☆ وإلا فمخـــزون لـــدي ومنكتم**

فإياك أيها المريد أن تتكلم بما لا يعود عليك بالصدق، وإلا تصير عندهم مرجوما بالزور والبهتان، ولم يكفهم ذلك ويقفوا، بل يترقوا إلى سبك وسب من ينتسب لذلك الشأن، فوقتئذ تكون أنت السبب في ذلك. فمن تسبب في شيء فله منه حظٌّ وافر.

فإذا أردت الكلام فتكلم بما يعود بالصدق عليك وعلى أهل سلسلتك إلى نبيك ﷺ. (**فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم الدين**). وكيف لا تفعل ذلك وأنت ترى سيرة أصحابه، - عليهم تمام الرضى والرضوان - كيف كتموا الأسرار وصانوها وعظموها وبجلوها، وكيف ساروا سيرتهم الحسنة التي يجب علينا الاقتداء بها لقوله ﷺ: (**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ**).

وقد بلغك ما ورد عنهم في كتمان السر، وقولهم في مثل هذا الشأن كثير. فمن ذلك، قول «سلمان الفارسي» - رضي الله عنه -: «لو قلت لكم ما قال لي خليلي محمد ﷺ لقلتم رحم الله قاتل سلمان». ومن ذلك قول إمام هذه الطائفة وأساسها سيدنا «علي» - كرم الله وجهه -: «أعطاني حبيبي محمد ﷺ جرابين من العلم، أحدهما بثثته، والآخر لو قلته لأزلتم هذا عن هذا، وأشار إلى رأسه ورقبته». وقول «أبي هريرة» - رضي الله عنه -: «لو قلت لكم ما أعلم لرميتموني بالفحش». ومن الأقوال المنسوبة لبيت النبوة، قول «زين العابدين» - رضي الله عنه -:

**يـا رب جوهر علم لو أبـوح بـه ☆ لقيل لي أنـت ممـن يعبـد الوثنـا**

ولاستحل رجال مسلمون دمي ☆ يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إني لأكتم عن علمي جواهره ☆ كي لا يمر بذى جهل فيفتتنا
قد كتمه أبو الحسن وأوصى به ☆ أن يكتمه من بعده الحسنا

قلت في مثل هذا الشأن:

وإياك والحجاب ترضى بهتكه ☆ فتلك حدود الله حصنا وأقفالا
ومن فشى سر الله باء بغضبه ☆ ومن كتم الأسرار كان مبجلا
ألا في كتمان السر فضل وهيبة ☆ وفخر وتعظيم وعزٌ بين الولا
وكفى بخير الخلق حيث أتى به ☆ من الله مكتوما وكنزا معطلا
أيا أهل إرثه حافظوا على عهده ☆ وصونوا لسره تعظيما وإجلالا

قال «ابن العربي الحاتمي» - رضي الله عنه -: «لا ينبغي للعالم أن يلقي علمه إلا في قلب محتاج إليه عطشان، فإن لم يجد من هو بهذه المثابة فليتربص حتي يجد لعلمه حاملاً، وليصبر صبرا شديدا ولا يضع العسل في قشر الحنظل».

هذا وأن القرآن نزل للسماء الدنيا، إن لم نقل على قلب «محمد ﷺ» دفعة واحدة، ثم أظهره الله باعتبار الوقائع. وقال لنبيه ﷺ: **(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل رب زدني علما)** «طه: 114» فكذلك الحقيقة ترد على المريد دفعة واحدة، لكن ينبغي أن يدرجها بلسانه باعتبار الأزمنة والأمكنة، مراعاة لأحوال الحاضرين. قال في الحكم العطائية: «الحقائق ترد في حال التجلي مجملة وبعد الوعي يكون البيان». **(فإذا قرأناه فاتبع قرءانه ثم إن علينا بيانه)** «القيامة: 18» فقد تبين لك أيها المريد ما صرحنا به، ولوحنا من أقوال أئمتنا الأعلام، وكيفية

تعظيمهم لأسرار الله. فلم يبق لك الآن إلا السير على منهجهم، والمتابعة لأثرهم لتكون من حزبهم (**أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**) « المجادلة : 22 ».

ثم قال رضي الله عنه:

## أَنْفَعُ الْكَلَامِ مَا كَانَ إِشَارَةً عَنْ مُشَاهَدَةٍ، أَوْ نَبَأً عَنْ حُضُورٍ

أي ما كان منشؤه عن مشاهدة، أو دل عليها وأنبأ عن حضور المذكور وأخذ السامع إليه.

فالكلام الذي لم يجمع على الله لا فائدة فيه. والكلام النافع هو ما برز عن لسان ذاكر، وقلب حاضر، فلا محالة أن يكون له تأثير في قلوب السامعين، لأنه برز من محله وهو القلب، فلا شك يقع فيه أي في القلب. بخلاف الكلام الصادر من غيره، فإنه في الغالب لا يقع فيه، لأنه مصنوع غير بارز من صميم الفؤاد.

والكلام النوراني الصادر من القلب لا يقع إلا في القلب كما ذكرنا، « الأطيار تحن إلى أوكارها ». إن برز الكلام المومئ إليه من القلب سكن في القلب كما وصفنا، بخلاف الكلام الصادر من اللسان فإنه لا يسكن في القلب، وتراه مكسوف الأنوار، مطموس الأثر، عليه صفة بشعة.

أما الكلام الصادر من أهل الله فإنك تجد له سطوة، لأنه بارز من

حضرة الله عز و جل. فلهذا لما يقع على القلوب يؤثر فيها تأثيرا كليا، ويميل بها إلى سواء السبيل، وأن السامع لا يجد محيداً عنه لما يجد فيه من سطوة الألوهية، كأنه تنزيل من حكيم حميد. نعم هو متلبس بكلام الله، ومقتبس منه، ومأخوذ من بحر لا ساحل له وفياض هاطل. فلهذا يأخذ كل من حاذاه.

ومنتهى الفائدة أن الكلام النافع هو ما كان صادرا من جسد طائع، وفؤاد خاشع، مركبا من قول وفعل. وإذا انفرد فإنه يكون معدوم الفائدة، أي طارئا غير سار.

هذا وإن الفقير الصادق لا يكون كلامه إلا دون مقامه بخلاف غيره. ولهذا يقال: إن العارف فوق ما يقول، وغير العارف دون ما يقول.

المريد الصادق لا تخرج سيرته على ما يرضي الله والرسول، فكيف لا يستفاد من كلامه. وقد كتب سيدي «أحمد بن عجيبة» - رضي الله عنه - لبعض تلامذته وقال له: «طالب الوصول لا تجده إلا ذاكرا أو متفكراً، أو تاليا أو مصليا، أو مذكرا أو مستمعا. أوقاته معمورة، وحركاته وسكانته بالإخلاص ملحوظة، إن تكلم فبذكر الله يتكلم، أو بما يقربه إلى الله، وإن تحرك فبالله وإلى الله، وإن سكن فمع الله، متأنسا بالله مشتغلا به، غائبا عن نفسه، ليس له عنها خبر، ولا مع غير الله قرار، أنسه بالله ومجالسته مع الله، التقوى زاده، والقناعة رفاده، ومن بحر العرفان استمداده، قد استغنى بالله عما سواه ورفض وراء ظهره دنياه وهواه، قد اتخذ الله صاحبا وترك الناس جانبا».

وقال «السهروردي» - رضي الله عنه -: «أهل التصوف على ثلاث طبقات: مريد طالب، ومتوسط طائر، ومنته واصل»؛ فالمريد صاحب

وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهي صاحب يقين. وأفضل الأشياء عندهم عد الأنفاس. فمقام المريد مقام المجاهدة والمكابدة وتجرع المرارات ومجانبة الحظوظ، وكل ما للنفس فيه منفعة.

ومقام المتوسط ركوب الأهوال في طلب المراد، ومراعاة الصدق في الأحوال، واستعمال الأدب في المقامات، وهو مطلوب بأدب المنازل، وهو صاحب تلوين، لأنه يترقى من حال إلى حال، فهو في زيادة.

ومقام المنتهي هو الصحو والثبات، وإجابة الحق من حيث دعاه، قد جاوز المقامات، وهو محل التمكين، لا تغيره الأحوال، ولا تؤثر فيه الأهوال، قد استوت عنده الشدة والرخاء، والمَنْع والعطاء، والخفاء والوفاء، أكله كجوعه، ونومه كسهره، قد فنيت حظوظه وبقيت حقوقه، ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق. فمن كانت هذه صفاته فكيف لا يسري كلامه.

ثم قال رضي الله عنه:

## مَنْ سَمِعَ مِنْهُ بَلَّغَ عَنْهُ

العارف إذا تمكن واستوى على عرش المعرفة، فلا يسمع إلا من الله عز وجل. ومن سمع منه فكيف لا يبلغ عنه. وقد تقدم أن العارف عليه رونق الهيبة والجلال لما فيه من رائحة الحق عز وجل.

كان بعضهم يقول لأصحابه: هلموا إلى علم قريب عهد من الله عز وجل. ومن حقق كلام العارف يجد فيه نسمة لم توجد في كلام

الغير، لأن الحق عز و جل يلوح على لسانه، وقد يشتد ظهوره بصفة الكلام على العارف حتى يكون الحق عز و جل هو المتكلم بلسانه كما هو معلوم من طريق القوم، وأنه عز و جل ليشتد ظهوره في العارف حتى قيل: « لو كشف عن نور العارف لَعُبِدَ من دون الله ». ولهذا لما أظهر الله عز و جل البعض من نوره على ذات « عيسى » عليه السلام عبده النصارى من دون الله. فمن حيث ما أظهر عليه من النور كان الحق عز و جل هو المعبود على الحقيقة. ولهذا يقال: لو عبدوا ما عبدوا غيره. فكانت مخالفتهم واضحة حيث أنهم لم يؤمروا بتلك العبادة لما فيها من رائحة التقييد، والحق في تنزيه عما يصفون. ومنتهى الفائدة، من أراد أن ينظر في وجه الله فلينظر في وجه العارف إن وجده، وكشف الله له عن معناه.

قال أستاذنا سيدي محمد البوزيدي رحمه الله:

**نحن احباب رب واحب فينا منشاه ☆ فلذ بنـــا تحظ وثم فينـــا شـــذاه**
**إذا عرفت الخـالق ترتـاح عمـا سواه ☆ واذا جهلتـه فينـا محـال عينك تراه**

وأما قول من قال: من شاف العارف شاف من شاف الله. إشارة بعيدة الشقة على السائرين. وأقرب المسالك قوله عز و جل: (**من يطع الرسول فقد أطاع الله**) « النساء: 80 » وقوله أيضا: (**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**) « الفتح: 10 ». فلك في ذلك سر عجيب مأخوذ من قوله تعالى: (**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب**) « البقرة: 186 » (**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**) « الاحزاب: 4 ».

ثم قال رضي الله عنه:

## عَلَيْكَ فَوْهُ ٱلْعَارِفِ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَوْهُ الْغَنِيِّ بِمُعْتَـادِهِ وَمَـأْلُوفِـهِ

كَأَنَّ الشيخ المصنف يقول: عليك أيها المريد بما يفوه به العارف فإنه لا يفوه إلا بمعروفه، ولا تحسب أن كلام العارف كغيره، تالله لهو أعز من الكبريت الأحمر، لأنه لا ينظر إلا بما احتوى عليه باطنه وحققته بصيرته، أي ما أنزل الله على قلبه، فلا ينطق عن هوى نفسه، بل يعلم أنه قريب عهد من ربه، وخمرة القوم في كلامهم، وسرهم في منطقهم. وقد كان يقول سيدي مولاي العربي الدرقاوي: «الناس خمرتهم في الحضرة، ونحن خمرتنا في الهدرة». ومن قولهم: «تكلموا تعرفوا». لأن العلم يؤخذ من أفواه الرجال، وما سوى العارفين ليسوا برجال.

إياك أخي أن تزهد في كلام القوم إذا جالستهم، بل حافظ على ما يلقونه، واتبع ما يشيرون به، فإن العارف لا يتكلم إلا بما يقتضيه حاله. قال بعضهم في هذا المعنى:

**والله ما طلعت شمس ولا غربت ☆ إلا وذكـرك مقـرون بأنفـاسي**
**ولا شربت زلال الماء من ظمأ ☆ إلا رأيت خيالا منك في الكأس**
**ولا جلسـت إلى قـوم أحـدثهم ☆ إلا وكنـت حديثي بين جـلاسي**

ولهذا تجد العارف تنصب عليه المعارف من كل جانب، فكيف لا يستفيد منه جلساؤه. ولبعضهم:

**ولست ملومـا أن أبـث مـواهبي ☆ وأمنـح أتبـاعي جزيـل عطيتي**

**ولي من مفيض الجمع عند سلامه ☆ علي بـأو أدنى إشـارة نسبـة**
**ومـن نـوره مشكاة ذاتي أشرقـت ☆ علي فنارت بي عشائي كضحـوتي**

فهذا حال من أخذته الحضرة الإلهية، فإنه لا يغني إلا بحديثها، كمن أخذته حلاوة الدنيا وزخرفها، فإنه لا يفوه إلا بمعتادها لقول المصنف: «فوه الغني بمعتاده ومألوفه» فكل يرشح بما فيه. ما ترشح الأواني إلا بما سكن. فمن أحب شيئا أكثر من ذكره، وأنت ترى الأغنياء إذا جالستهم، فهل يقدر أحد أن يفوه بغير معتاده ومألوفه، بل هو فانٍ في ذلك لا يستطيع الخروج عنه، يكاد يبدي به بدون اختيار منه، ومن لم يشاركه في كلامه ويوافقه في حاله، في الغالب يسقط من نظره، فهو لا يرى شيئا زائداً على ما هو فيه، ولا يرضى بدلاً به، وأي شيء يأخذه الجالس من كلامه. لا يأخذ إلا مجرد الحرص على الدنيا والتأسف على ما فاته منها. فكذلك من يجالس العارف لا يجد على فيه إلا ما هو مكنون في باطنه. ولهذا يقال: «ما فيك يظهر على فيك». فإذا أخذ المريد ما أشار به العارف فلا شك يتأسف على ما فاته من التقصير في طلب الله، وينهض من غفلته ويقول: ( **يا حسرتىٰ على ما فرطت في جنب الله** ) «الزمر: 53» لأن كلام القوم دواء مجرب، بل كله حكمة ( **ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ) «البقرة: 269».

العارف يتكلم بغرائب جلت عن الأفكار. ولسلطان العاشقين في ذلك:

**جنى ثمر العرفان من فرع فطنـة ☆ زكا باتباع وهو من أصل فطرتي**
**فإن سئل عن معنى أتى بغرائب ☆ عن الفهم جلت بل عن الوهم دقت**

ثم قال رضي الله عنه:

## الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ عُلَمَاءِ كُلِّ زَمَانٍ مَا يَلِيقُ بِأَهْلِهِ

العلماء ورثة الأنبياء، وأمناء على سر الألوهية، ومحافظون على مصالح العباد، وما من كتاب نزل على نبي من الأنبياء إلا وهو متضمن مصالح أهل ذلك الزمان، قاطع النظر عن بقية الأزمنة بخلاف الكتاب الجامع، وهو القرآن العظيم، النازل على النبي عليه الصلاة وأزكى التسليم، فهو صالح لبقية الأزمنة لما احتوى عليه من الأسرار والمعارف والأنوار، وبه كان علماء هذه الأمة ورثة الأنبياء. والمراد بالعلماء، العلماء بالله الذين قعدوا على قواعد الشريعة حيث قعد الغير على الرسوم، فكان لهم الحظ الوافر من حيث الباطن.

أما سواهم من العلماء فقد أخذوا بظاهر الكتاب وتركوا ما كانت عليه بواطن أصحاب رسول الله ﷺ، ففاتهم خير كثير. وبهذه المثابة أي بسبب إرثهم لأسرار النبوءة، كان الحق تبارك وتعالى يجري على ألسنتهم في كل زمان ما يليق بأهله، ولا يجري على ألسنتهم إلا ما هو مأخوذ من الكتاب والسنة. لأن العلماء بالله وإن كانوا محجورين عن التشريع فهم غير محجورين عن فهم معاني القرءان. فهم يتصرفون فيه كيف شاؤوا، وهم في غنى عما يؤخذ من غيره لعلمهم بمقتضاه وسبب نزوله. ومن هنا استغنى بهم الورى لأنهم بمثابة الرسل في قومهم كما قيل:

فعالمنا منهم نبي ومن دعا ☆ إلى الحق منا قام بالرسلية

وعارفنا في وقتنا الأحمدي من ☆ أولي العزم منهم آخذ بالعزيمة
وما كان منهم معجزا صار بعده ☆ كرامة صديق له أو خليفة
بعترته إستغنت عن الرسل الورى ☆ وأصحابه والتابعين الأئمة
كراماتهم من بعض ما خصهم به ☆ بما خصهم من إرث كل فضيلة

ولولا وجودهم في العالم من ذا الذي يبدى في كل زمان ما يليق بأهله. فالحق تبارك وتعالى يجري على ألسنتهم ما كان يجريه على ألسنة أنبيائه وأصفيائه. وأنت ترى ما من نبي بعث في زمان إلا وشريعته مناقضة في الغالب لما سبق من الشرائع، لاختلاف الأحوال والطوارىء الزمانية والظروف المكانية. وبعثة الرسل تتضمن القيام بناموس الحكمة حسب مقتضى الأحوال من كل الوجوه. ولو تأملت في معجزة الرسل، عليهم الصلاة والسلام، لوجدت كل معجزة يحتاج إليها ذلك الوقت دون بقية الأوقات. ولما كان علماء الأمة المحمدية نوابا عن الرسل في قومهم، ترى الحق يجري على ألسنتهم ما ينفع به أهل زمانهم ديناً ودنيا، والقرءان العظيم لم ينزل إلا بسعادة هذه الأمة، فتراه مشتملا على ناسخ ومنسوخ، ورخص وعزائم. وكل ذلك مراعاة للعوارض والظروف الحاضرة. وفي كل وقت يظهر الله على يد ذلك العالم ما تقتضيه حقيقة ذلك الوقت من علوم ومعارف، لأن الأحكام قد تتغير بتغيير الأوقات. وأنت تعلم من الشرع بالضرورة أن صلاة المسافر ليست كصلاة الحاضر وقس على ذلك، وكل رخصة تؤتى في وقتها، وبشروطها تكون هي عين العزيمة.

ثم اعلم أن في القرءان العظيم أسرارا غريبة لو أظهرها الله على ألسنة العلماء لكانت فتنة على أكثر الخلق. فكل معنى إلا وله وقت

مخصوص والحكمة لا يظهرون بها قبل أوانها. قال تعالى: (**ولا تعجل بالقرءان من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل رب زدني علما**) « طه: 114 » وكلما تأنى العارف عن إظهار ما هو غريب الظهور، إلا ويزداد له في الإقبال لوضوح نتيجته « تحدث للناس أقضية بحسب ما أحدثوه من الفجور ». أي بعد إحداث الفجور تحدث الأقضية، ولا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة، لأن الله جمع في القرءان العظيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقد يوجد من الآيات القرءانية ما هو كنز مُقفل لم ينفذ منه شيء إلا إذا أتى أوانه، فيبعث الله تبارك وتعالى علماء يجري ذلك الكنز على ألسنتهم لكي ينتفع أهل زمانهم وقومهم به. (**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**) « إبراهيم: 4 ».

ثم اعلم، أن القرءان العظيم نزل على حروف سبعة وله وجوه؛ ومن وجوهه الظاهر والباطن، والحد والمطلع، فهو ينزل حسب المنازل (**ونزلناه تنزيلا**) « الإسراء: 106 » فأين فهمنا من تلك الوجوه؟ فترانا الآن نتصرف في بعض من الكل، ولكل أمة نصيب، لأنه صالح لسائر الأزمنة غير منسوخ. وسيأتي الله تبارك وتعالى بقوم من بعدنا يأخذون من أسرار القرءان العظيم ما لا يمر على أفكارنا، وذلك حظهم من خطاب الله، لأنه تبارك وتعالى خاطب بالقرءان العظيم من كان مع محمد ﷺ إلى يوم البعث. فالوحي لا زال ينزل من حيث ما احتوى عليه القرءان العظيم بواسطة ما يجري الله على ألسنة هذه الأمة. وقد وجد في كتب المتأخرين من معجزة النبي ﷺ ما لم يخطر ببال المتقدمين لعدم احتياجهم لذلك، فكان الحق

تبارك وتعالى يجري على ألسنتهم ما يصلح بأهل زمانهم، ولكل ماض دواء، ومن جعل الناس سواء ليس لحمقه دواء، ومن جهل أن الطبيب يداوي بدواء واحد فقد وهم، فإن الطبيب يداوي بحسب الأزمنة والأمراض، والأدوية تختلف باختلاف الأمراض بسطاً وتركيباً. فهذه أمراض الأجسام، فكيف بأمراض القلوب. مثال ذلك، إذا أتى منكر النبوءة من ذوي التاريخ وقال: ما هي معجزة النبوءة عندكم؟ فهل تقول له انشقاق القمر، أو حنين الجذع، أو ما أشبه ذلك؟ فهذه معجزة لا تفحمه، كانت لمن حضر وقته ﷺ. وفائدة المعجزة إعجاز المعارض، ومن كان له فهم في أسرار القرءان العظيم يجد من المعجزات ما لا يحصره عدد، فله أن يقطع حجة كل الخصماء على اختلاف طبقاتهم بكون النبي ﷺ رسول بقية الزمان، لأن الله تبارك وتعالى أعطى لأمته وأجرى على ألسنة علمائها ما يعجزون به كل معارض، فكانت معجزته ﷺ مستمرة، بخلاف بقية الرسل فإنها منقطعة بموتهم.

وحاصل الأمر ينبغي للعالم أن ينظر أحوال المعارض لكي يقيم عليه الحجة من علمه. ولنا من المعجزات البديهة ما يقتضي إعجاز كل معارض. فإن قلت للخصم: إن رسول الله ﷺ أخبر بأنه هو آخر النبيئين وخاتم المرسلين كما أخبر به عز من قائل، فكذب بذلك أهل زمانه، وقد تحقق صدقه الآن حيث مر من الزمان أربعة عشر قرنا ولم يبعث غيره. فهل يوجد لهذا الخبر ناقض؟ كلا! إلا من كان للحق جاحداً. وعلى كل حال فهذه المعجزة تؤثر في قلب المعارض وإن جحدها.

ثم اعلم أن المؤرخين لا ينبغي معارضتهم إلا بما تضمنه التاريخ. وقد يوجد في القرءان ما يعجزهم عن المعارضة، كما أخبر النبي ﷺ: قومه بفتح الأمصار كالشام ومصر والقسطنطينية وغيرها مما لا يدخل تحت حصر. فمن ذلك قوله ﷺ: (**وإذا فتحتم مِصْرَ فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لنا فيها رحما وأصهارا**). وإنه أيضا قطع قطعة من أرض الشام ووهبها لأبناء تميم الداري وهي الآن معروفة بالخليل. وقوله ﷺ في فتح القسطنطينية: (**نعم الأمير أمير قسطنطينية، ونعم الجيش جيشها**) وهو الآن كما قال، وأخباره بفتح مكة المشرفة، وتصديق الحق تبارك وتعالى له بقوله: (**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق. لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون**) « الفتح: 27 ». فكان الأمر كما أخبر به عز وجل. وقد أخبر ﷺ بانتصار الروم على المجوس بعد سنين، وصدقه الحق تبارك وتعالى بقوله: (**آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين**) « الروم: 1 ». فكان الأمر على حقيقته بعد بضع سنين. ولك يا أخي أن تجد في القرءان العظيم ما تعجز به كل معارض إن أنصف من نفسه، وإلا تُرِكَ في غيه. وقد اتضحت أكثر المعجزات في زماننا هذا. فمثال ذلك إخبار الحق تبارك وتعالى له «بذي القرنين» وما وقع له مع ياجوج وماجوج وبنائه السد وأنه من مدهشات الأمور، وأنه ممزوج بالحجر والحديد والتراب مع أنه بينه وبين السد من المساحة ما يعجز عنه البشر في زمانهم، وأن الوقتيين زعموا أنهم اكتشفوا هذا السد. وهل هذه إلا معجزة، وقد صرح بها

أكثر علماء الأجانب وأن العلوم المعتبرة التي أخذوها مأخوذة عن الإسلام، خصوصا التمدن الوقتي فهو بعض ما تضمنته الشريعة الإسلامية. وكلما اجتهدوا في القوانين والأحكام والنهي عن المنكرات إلا وتجد السنة المطهرة قد سبقتهم به. وقد حصل لي اجتماع مع بعض من علمائهم فقال لي: إن الاسلام لم يعتبر خواص الانسان والاعتناء بتركيبه. فقلت له: إن ذلك عندنا من مباديء العلوم. فقال لي: وكيف ذلك؟ قلت: إن الله تبارك وتعالى أول ما أنزل على نبيه ﷺ: ( **إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم** ) « العلق: 1- 5 ». فانظر كيف نبه الله نبيه في أول هذه السورة على أول خلقة الإنسان، وقد قال في سورة أخرى: ( **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ) « الذاريات: 21 ». ثم أنه أخذ يتكلم معي في الفلسفة الوقتية، وذلك كنزول المطر، وجريان السحاب، وكيفية توقف الأسباب على بعضها بعضا، زاعما أن ذلك مما انفردوا به، وأن الأمة المحمدية تصور المحال في مثل ذلك. وأخبرني بخرافات سمعها من ضعفاء العقل أضافوها للشريعة، مع أن شريعتنا مبرأة منها. فقلت له: إن شريعتنا لم تخبرنا بها، وانما أخبرتنا بالحق الذي لا يمكن انتفاؤه. فقال لي: ما تقولون في نزول المطر ومن أين ينزل؟ فقلت له: أقول فيه ما قال الله فيه عز من قائل وأخبر نبيه به ﷺ منذ أربعة عشر قرنا. فقال وما هو؟ فقلت له مخاطبا: ( **ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله** ) « النور: 43 ». فقال لي: والله ما لنا على هذه المعرفة من

مزيد. ثم أخذ يتكلم معي في الألوهية، وقد تفرست فيه أنه منكر للألوهية ومتوغل في علم الطبيعة على مذهب الدهرية، ومعتقد أن الطبيعة والعادة هما الفاعلتان لا غير قائلا: لو كان في هذا العالم فاعل لتميز عن فعله، أو خالق لتميز عن خلقه، وأن أرباب الطبيعة والفلسفة فحصوا عن ذلك واجتهدوا غاية الإجتهاد وانتهى بهم علمهم إلى انكار الألوهية، فقلت له: لا أظن أنك بالغ الغاية في هذا الفن. فقال لي: نعم. فقلت له مع ممارستك له لا بد أن يكون لك شك أو ظن بأن في هذا العالم قوة باطنة تكون جابرة وحافظة له من التلاشي والتخريب، وأن هذه القوة الباطنة غير مطلع عليها. فقال لي: نعم. عندي بعض شك. فقلت له: أيصح الشك الذي عندك أن يكون يقينا عند غيرك؟ فقال نعم. فقلت له: أيصح لنا أن نعطي تلك القوة إسما من الأسماء أم لا؟ فقال: يصح. فقلت له: إننا نسميها الألوهية، أو نسميها القدرة التي هي صفة الذات الجابرة للعالم من السقوط. فقال لي مذهبنا لم يبلغ حقيقتها وكنهها. فقلت له: ما ذكرت لك يجب اعتقاده وبه أخبرنا التنزيل. قال عز من قائل: **(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)** « الشورى: 11 ». فقال لي: إن الإسلام أخذ بعضا من باطني.

وحاصل الأمر إنه قد جرى بيننا كلام أكثر مما ذكرنا، وكله دائر في المحدثات الوقتية، وكنت إذا أردت أن أجاوبه بكلام يزداد يقينا في الإسلام خصوصا لما أطلعته على كتاب جعلته في الفلك الذي سميته (مفتاح الشهود في مظاهر الوجود) فانظره إن شئت، فلك فيه من هذا الفن نصيب، ولا تستغربه يا أخي، فإنه نافع في زماننا

هذا حيث كان مأخوذا من قول المصنف - رضي الله عنه -: « الحق يجري على ألسنة علماء كل زمان ما يليق بأهله ».

ومنتهى الفائدة أن علماء الأمة من جنسها ( **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً** ) « الأعراف : 58 ».

ثم أعلم أن مثل القرءان العظيم مع علماء الأمة ( **ولله المثل الأعلى** ) « النحل : 60 ». كمثل الكيمياويين مع خواص المعادن الأرضية، وأنت ترى كرة الأرض وما احتوت عليه من المعادن، لأنها خلقت قبل آدم بأحقاب، ومن ذلك العهد إلى يومنا هذا وسكانها الماهرون في معرفة خواصها يكشفون عن معادنها شيئا فشيئا، ولا يكشفون إلا على ما هو مستحق للظهور محتاج إليه في ذلك الزمان.

ومن حكمة الله أنك تجد المعدن الذي خلقه الله تبارك وتعالى يوم خلق الأرض قد مر عليه خلق كثير ولا خبر لهم بخاصيته لعدم احتياجهم إليه، وأن الله لم يخلقه لذلك الوقت، وإنما يكشفون وينتفعون بما يحتاجونه في ذلك الوقت. وأما ما يحتاج في هذا الوقت فقد مرت عليه أحقاب وهو كالمعدوم عند أهل الزمان الماضي، ولما أتى أوانه الآن أظهره الحق تبارك وتعالى على أيدي علماء فن المعادن كما هو مشاهد، فتراهم يستخرجون كل يوم من الأرض ما عجزوا عليه بالأمس، مع أن الكل مخلوق في آن واحد، لأن الله تبارك وتعالى خلقه عند ابتداء خلق الأرض وقصر نفعه على أهل وقتنا هذا ( **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ) « الحجر : 21 ». فافهم.

---

ثم اعلم أن الأرض لا بد لها أن تلقي ما فيها، وتستفرغ ما عندها

من الكنوز والمعادن النفيسة حسبما يحتاج إليه سكانها على اختلاف الأزمنة حتى تستفرغ ما عندها، ولم يبق ما فيها إلا التراب الخالص، ويكون ذلك دليلاً على انتهاء حياتها وانقراض سكانها ( **وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت** ) « الانشقاق : 3 - 4 » فهذه عبارة في المحسوسات، قس عليها في المعقولات. كانت خاصية في الجسم الكثيف أي كانت الأرض تعطي في كل زمان ما يليق بأهله، فكيف بالقرءان الذي يقول الله فيه: ( **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ) « الأنعام : 38 » فلكل زمان قادة، وفي كل مكان سادة. ومن هنا تفهم قول من قال: « إذا كانت المعارف منحا إلهية ومواهب اختصاصية، فلا يستغرب أن يدخر للمتأخرين ما صعب فهمه على المتقدمين ». ( **والله يقول الحق وهو يهدي السبيل** ) « الأحزاب : 4 ».

الفصل السابع عشر

# في أفعال القوم وثباتهم بعد فنائهم

قال رضي الله عنه:

## أَسَاسُ هَذَا الشَّانِ عَلىَ الْجَدِّ وَالإِجْتِهَادِ، وَقَطْعِ الْمَأْلُوفَاتِ وَالأَعْيَادِ

أساس الطريقة ومبني الحقيقة على الجد والإجتهاد لا على التكاسل. فمن وجدته متكاسلا في الطريق مشتغلا بمألوفاته لا يطيق الخروج عن أعياده، ولا عن عوائده وشهواته، فإنه لا يجيء منه شيء، لأنه لم يحقق المقصود. فلو عرف ما قصد لهان عليه ما ترك. فلا بد من النهوض وانزعاج القلب في طلب المحبوب، ومن لم تكن فيه رائحة النهوض فهو عن الحضرة مطرود. وكيف يستطيع القعود من تحقق لديه المقصود. يقول الحق في بعض الأحاديث القدسية: (**ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من بخل بطاعتي**). ويحكى عن رابعة العدوية - رحمها الله - أنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت درعها وخمارها ثم بعد ذلك تقول: «إلهي نارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه فهذا مقامي بين يديك». ثم تقبل على صلاتها. فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت: «إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر،

فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ، أم رددتها علي فأعزى، فوعزتك ما أحييتني وأعنتني، وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك». ثم تنشد وتقول:

يـا سروري ومنيتي وعمـادي ☆ وأنيسي وعـــــدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنـت رجـائي ☆ أنـت لي مؤنس وشـوقك زادي
أنت لـولاك يـا حيـاتي وأنسي ☆ لمـا تشتت في فسيـح البـلاد
كم بـدت منـة وكم لك عنـدي ☆ من عمـاد ونعمـة وأيـاد
حبـك الآن بغيتي ونعيمـي ☆ وجـلاء لعين قلبي الصـادي
ليس لي عنـك مـا حييت براح ☆ أنـت مني ممكـن في السـواد
إن تكـن راضيـا علي فـإني ☆ يا منى القلب قد بـدا إسعـادي

ولبعضهم في هذا المعنى:

بقـدر الكـد تكتسب المعـالي ☆ ومن طلب العلى سهر الليـالي
تروم العلى ثم تنـام ليـلا ☆ اتعبت نفسك في طلـب المحـال

ومن هنا قال ﷺ: (**من أعز نفسه فقد أذل دينه، ومن أذل نفسه فقد أعز دينه**). أي من لم يجاهد نفسه ويعالج هواها ويقطع مألوفاتها وأعيادها فقد تهاون بدينه، لأن الدين أتى بمخالفتها وأمر بتهذيبها. وما أحسن قول «ابن العربي الحاتمي» رضي الله عنه:

سبح إلاهـك بكـرة وأصيـلا ☆ فـالنفل يرجع بالهـدى إكليـلا
جاهد هواك ولا تكـن ذا فترة ☆ فيـه وكـن للنائبـات خليلا
إن المجاهـد لا يزال مكابـدا ☆ يهوى الخطوب ويعشق التعليلا
لا تركنن إلى البطالـة إنهـا ☆ تردي وكـن للحادثـات وصـولا

قال بعضهم: رأيت «أبا ميسرة» العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد في الطاعة فقلت له: يرحمك الله، إن رحمة الله واسعة. فغضب وقال: هل رأيت ما يدل على القنوط (**إن رحمة الله قريب من المحسنين**) «الأعراف: 56». فأبكاني والله كلامه.

فتحصل من هذا أن الاجتهاد من شعائر القوم وأُسست عليه قواعد المشاهدة. فمن لم يجاهد لم يشاهد. ولبعضهم في هذا المعنى:

**فجاهد تشاهد فيك منك وراء ما ☆ وصفت سكونا عن وجود سكينة**
**فمن بعد ما جاهدت شاهدت مشهدي ☆ وهاديَ لي إياي بل بي قدوتي**

القوم لهم أثر في السير لا يخفى على البصير، فمن أراد الانتماء إليهم فينبغي له أن يتصف بأحوالهم، وهل يكفيه الإنتساب بمجرد القول مع التكاسل في الفعل. كلا! وقد قيل:

**إلى متى أنت بما يلهيك مشتغل ☆ عن نجح قصدك من خمر الهوى مثل**
**ترضى من الدهر بالعيش الذميم إلى ☆ كم ذا التواني وكم يغري بك الأمل**
**وتدعي بطريق القوم معرفة ☆ وأنت منقطع والقوم قد وصلوا**
**فانهض إلى ذروة العلياء مبتدراً ☆ عزما لترقى مكانا دونه زُحَلُ**
**فإن ظفرت فقد أعطيت مكرمة ☆ بقاؤها ببقاء الله متصل**
**وإن قضيت بهم وجدا فأحسن ما ☆ يقال عنك قضى من وجده الرجل**

الحزم من شيم العارفين، والكسل من نعت المغترين. كم من كسلان بادر للرجوع من بعد الشروع، ورضي بالوقوف بدل التعرف.

ولبعضهم:

**دع التكاسل في الخيرات تطلبها ☆ فليس يسعد بالخيرات كسلان**

**لا ظل للمرء أحرى من تقى ونهى ☆ وإن أظلتـــه أوراق وأغصـــان**

وحاصل الأمر، من لوازم المنتسبين إلى الله الجد والإجتهاد، وإن كان المريد لا يصل بعمله، وإنما يصل بمحض الفضل، فهو مطلوب بالاجتهاد والوقوف على جادة الاستقامة والأسباب المقتضية للإقتراب في الغالب. فعلى العبد الأسباب وعلى الله رفع الحجاب.

قال مولانا الشيخ « عبد القادر الجيلاني » - رضي الله عنه - لبعض تلامذته: « أيها المريد بك لا يجيء شيء » لأن الحضرة الإلاهية جل شأنها، لا يدخلها أحد بعمله. وقد قال ﷺ لأصحابه: **(ما فيكم من يدخل الجنة بعلمه.** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)**.

فإذا كانت الجنة لا يدخلها أحد بعمله فكيف بحضرة القدس. فلا مدخل على الله إلا من باب الفضل. ومع قول النبي ﷺ: **(إن الجنة لا يدخلها أحد بعمله)** لم يزد الصحابة إلا عزيمة ومكابدة في العمل، خصوصا من غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ألا وهو النبي ﷺ، وقد قام الليل حتى تورمت قدماه.

فتحصل من هذا أن عمل القوم وسيرة السلف هي مجرد الامتثال، وعلى الله الكمال.

ومن نعم الله على أحبابه أن ألبسهم حلة الجد والاجتهاد، وجعل ذلك من نعتهم ولوازمهم، كما ألبس المنقطعين لباس العجز عن العمل والتكاسل، ومما يدلك على وجود قرب الحق من عبده إقامته في خدمته، ونهوضه عند أمره، والوقوف عند نهيه، والجد والاجتهاد في طلبه. فجد أيها المريد تجد، وجاهد تشاهد، واحفر تظفر. فلا

يظهر الزبد إلا بعد مخض اللبن. ولا تقف مع النادر، فإن الحكم للكثير. وقد قرنت المجاهدة بالمشاهدة. فشمر عن ساق الجد ما استطعت، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

ثم قال رضي الله عنه:

## مَنْ خَرَجَ إِلَى الْخَلْقِ قَبْلَ حَقِيقَةٍ تَدْعُوهُ إِلَى ذَلِكَ فَهُوَ مَفْتُونٌ

أي من خرج لإرشاد الخلق ونصب نفسه للتربية قبل أمر محقق يدعوه لذلك فهو مفتون، لأنه خرج للخلق بالخلق أي بنفسه لا بربه، فيكون أمره مردوداً عليه، ويصير خروجه فتنة عليه وعلى من تعلق به، وفي الغالب يكون كلامه غير مقبول لما قيل: «ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار، إذا لم يؤذن لك فيها بالاظهار».

وقد قال صاحب الحكم العطائية: «أدفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه». أي فائدته معدومة في الغالب لكونه خرج بنفسه. فلا جرم أنه يتعسر الأمر عليه لما قيل: «ما تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك، ولا تعسر مطلب أنت طالبه بربك». ومن أراد الظهور فهو عبد الظهور، ويكون ذلك مخلا بعبادته حيث أراد أن يشتغل بتهذيب الخلق قبل أن يفرغ من تهذيب نفسه. ومن حسن سيرة العارف بالله أن لا يطلب شيئا زائدا على العبودية لما قيل في الحكم العطائية: «مطلب العارفين من ربهم

الصدق في العبودية، والقيام بحق الربوبية». وقال أيضا: «خير ما تطلبه منه، ما هو طالبه منك». وليس على العارف إذا تحققت معرفته إلا الوقوف مع آداب الحضرة الإلاهية، وأن يفني وجوده ويضم يده حتى يمدها بالله فتكون حينئذ له لا عليه. قال تعالى للكليم عليه الصلاة والسلام: (**واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء**) «طه: 22». ولو لم يضممها إلى جناحه لما كانت بيضاء وكانت آية للعالمين. ولا يحصل البياض إلا بعد الإنضمام والخمول بين الانام. وقد قيل في هذا المعنى:

**ليس الخمول عيبا في الرجال ☆ كما اختفت ليلة القدر في الليالي**

فهذا الحكم راجع لمن حصل شيئا من أسرار القوم. وأما من لم يحصل شيئا ونصب نفسه للإرشاد فهو مفتر كذاب، فلا يعد من القوم حتى يصوروا فيه الخروج إلى الخلق أو عدم الخروج، فمتى دخل على الحق حتى يخرج إلى الخلق، فهو من جملة الدجالين وهو مفتون حقيقة.

أما الأول فهو مفتون من حيث عدم التيسير، لأنه خرج للخلق باختيار نفسه، وقد عقد مع الله عقدة أن لا يتقدم لشيء بنفسه فطال عليه الأمد وسولت له نفسه، وحدثته بأن الخير في الخروج إلى الخلق والاشتغال بتربيتهم، فَفَتَنَتْهُ وكدرت عيشه وأشغلته عما كان عليه من الوقوف مع الحق، والفهم عنه، والمتابعة لمرضاته، وصار يتكلف للكلام ويتظاهر بالمقام، وكل ذلك من فتنة النفوس، أجارنا الله منها.

ثم قال رضي الله عنه:

## لِسَانُ الْوَرَعِ يَدْعُوكَ إِلَى الآفَاتِ

لسان الحال يدعو إلى الآفات، أي يقتضي عدم الراحة في الدنيا وتكدر العيش. فمن تورع في أكله وملبسه لا يحلو له شيء لما يراه من وجود الإختلاط، فهو دائما واقف على باب الاختيار. فالمقام عظيم، إلا أنه يحتاج إلى صبر كثير لكونه منوطا بالآفات، فيحتاج إلى معين وهو الصبر كما تقدم، فليصبر الورع، وليرابط على مقامه، وإلا يزول عن مرتبته. فمن لم يتورع في دنياه تكدر عيشه وقد قلت في ذلك:

**تورع في طلب القوت يكفيك بعضه ☆ ورابط على الأيام بالصبر تنفذ**

وقد كتب « سفيان الثوري » - رضي الله عنه - إلى عابد من العباد قائلا له: اعلم يا أخي، إنك في زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوذون أن يدركوه، ومعهم من العلم ما ليس معنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف بنا إذا ادركناه ونحن على قلة من العلم، وقلة الصبر، وقلة الأعوان على الخير، وفساد من الزمان. فعليك بالخمول، فإن هذا زمان خمول وعليك بالعزلة، فإن هذا زمان العزلة، وقلة مخالطة الناس.

وكان الإمام « علي » - كرم الله وجهه - يقول: « إذا أدركت الدنيا الهارب منها جرحته، وإذا أدركت الطالب لها قتلته ».

**إن الذين بنوا فطال بناؤهم ☆ واستمتعوا بالمال والأولاد**
**جرت الرياح على محل ديارهم ☆ فكأنهم كانوا على ميعاد**

وكان بعض العارفين يقول: « ما أصنع بالدنيا إن بقيتُ لم تبق لي، وإن بقيتُ لم أبق لها ». وقد قيل:

**من نـال من دنيـاه أمنيتـه ☆ أسقطت الأيـام منهـا الالـف**

وقال غيـره:

**إنما هـذه الدنيـا متـاع ☆ والغرور الغرور مـن يصطفيهـا**
**مـا مَضَى فـات والمؤمـل غيب ☆ ولك الساعـة التي أنـت فيهـا**

وقيل: إن « عمر بن عبد العزيز » - رضي الله عنه - جاءه خراج اليمن ومعه عنبر جميل على اثني عشر بغلا، فأحضر المال بين يديه ثم أمر به إلى بيت المال، وأمر بالعنبر أن يؤتى به، فلما حضر بين يديه سد أنفه، وأمر به أن يدخل إلى بيت المال. فقيل له: إن هذا العنبر لا ينقصه ريحه. فقال: إنما ينتفع منه بريحه، وبعثت له بنته بلؤلؤة وقالت له: يا أمير المؤمنين إذا رأيت أن تبعث لي أختها لأجعلها في أذني فافعل. فأرسل إليها جمرتين ثم قال: إن استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت بأخت اللؤلؤة إليك.

وكان الإمام « ابن حنبل » - رضي الله عنه - لا يلبس ثوبا مكفوفا، بل كان يشلله ويقور وسطه ويتركه في رأسه ويقول: هذا لمن يموت كثير. وكان أكثر مؤونته من نبات الأرض ويقول: هذا هو الحلال الذي ليس فيه حساب ولا تبعة. وقد حملت إليه الأموال الكثيرة لما خرج من السجن وهو محتاج إلى أيسرها، فرد جميعها ولم يقبل منها قليلا ولا كثيراً. فجعل عمه إسحاق يحسب ما رده في ذلك اليوم. فقال له: يا عمي، أراك مشغولا بحساب ما لا يفيدك،

وورع السلف أجل من أن يتصف به الخلف، فضلا عن أن يتصف به أهل زماننا هذا، إلا أن التشبه بأسلافنا مطلوب، والشيء في الجملة أفضل من عدمه. قال الشاعر :

**فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ☆ إن التشبه بالكرام نجاح**

ثم قال رضي عنه:

## وَلِسَانُ الْتَّعَبُّدِ يَدْعُو إِلَى الْدَّوَامِ

أي لسان التعبد يدعو إلى الدوام والاستمرار على العبادة؛ لأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلت. فلسان التعبد ينادي بالثبات على العبادة ( **واعبد ربك حتى ياتيك اليقين** ) « الحجر : 99 » . ( **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ) « الذاريات : 56 » . فلا تجنح أيها المريد عما خلقت لأجله، فأنت عبد على كل حال، فأقبل عليه طوعا، وإن لم تقبل عليه طوعا أخذك منك كرها لما قيل : « من لم يقبل على الله بملاطفة الإحسان قُيد إليه بسلاسل الامتحان ». فمقتضى العبودية منك أن تكون عبداً على كل حال، كما هو رب لك في كل حال. فتوجه لله - بارك الله فيك - وقل كمن قال :

**أنت غاية قصدي ومنتهى أمالي ☆ هل لي سواك من إلهٍ يعبد**
**فرغت قلبي لوجودك مخلصا ☆ حاشا عبيدك عن بابك يطرد**

ولا تطلب شيئا زائدا على العبودية، لأن خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك. وكفاك نعمة منه إليك حيث ارتضاك لخدمته، وأسبل ستْرهُ عليك. قدم على طاعته، فإنك تموت على ما عشت عليه، وتحشر على ما مت عليه.

ثم قال رضي الله عنه:

**وَلِسَانُ الْمَعْرِفَةِ يَدْعُو إِلَى الْفَنَاءِ وَالْصَّحْوِ وَالإِثْبَاتِ**

فلسان المعرفة التي هي غاية العبد من ربه يدعوك أيها المريد إلى الفناء والمحو الدائم عنك، وعن كل نسبة تلازمك، حتى لا يبقى فيك ولا بك ولا منك أثر، لأن المعرفة التي لم تمح أثر العبد ورسومه ليست بمعرفة. فلهذا كان لسانها يدعوك لذلك كما يدعوك إلى الإثبات بعد المحو. لأن الإثبات يكون بالله لا بنفس العبد. فلسان الذات يدعو إلى المحو، ولسان الصفات يدعو إلى الثبات، والعارف بين ما ذكر. والحس لا تجتمع فيه الأضداد، بخلاف المعنى فهي صالحة لكل متناقض. وفي ذلك قال الشاعر:

**جمع الأضداد هو مرادي ☆ في جوهر حسنها السليم**

فيصير العارف في هذا الحال مفقودا في صورة موجود لأنه تلاشى وزال زوالا كليا حتى إذا صح منه ذلك تولاه الله بنفسه، فقد يتخبَّل الغزل على العقلاء في هذا المعنى فضلا عن البلداء، أي على من لم يطلعوا على ما كنته أسرار القوم، فتجدهم في ألفاظهم يثبتون وجود العبد وعدمه، وفنائه وبقائه، وسكره وصحوه. وفي ذلك ما يعجز عنه كل من لم يحقق مقامهم، وله في ذلك من العذر ما للعارف من المعرفة. فمن جهل شيئا عاداه. وكل ما صدر من القوم مما يوهم السامع ويشوش عليه، فهو مأخوذ من الفناء الحاصل لهم بواسطة التجلي الإلاهي المقتضى فناء العبد وتلاشيه من لوحة الوجود. قال « الشرنوبي »: - أطال الله بقاءه - أثناء شرحه على تائية السلوك

في معنى الفناء: «إذا رسخ قدمك أيها المريد وتمكن سرك حال سكرك قلت هو، وإن غلبك وجدك وتجاوز سكرك قلت أنا». ومن هنا أشكل على الأفهام حل رموز هذا الكلام. فقائل يقول: زنديق فيقتل، وقائل يقول صديق فيحمل. وقائل يقول مغلوب عليه فيهمل. فهو من حيث تحقيق حاله محو في علمه، والذي حكم بقتله مصيب في حكمه إذ الشريعة لها حدود، فمن تعداها أقيمت عليه الحدود، والحقيقة لها شهود خارج عن طرق الوجود. والعارف هو الذي لا يخرج عن حد ولا يخلو من وجد.

وقد قال «الشريف» وما أحسن قوله: «ذو العقل هو الذي يرى الخلق ظاهرا ويرى الحق باطنا، فيكون الحق عنده مرآة الخلق، لإحتجات المرآة بالصورة الظاهرة، وذو العين هو الذي يرى الحق ظاهرا والخلق باطنا فيكون الخلق عنده مرآة الحق لظهور الخلق عنده، واختفاء الخلق فيه اختفاء المرآة في الصورة، وذو العقل والعين هو الذي يرى الحق في الخلق وهو أقرب النوافل، فيرى الخلق في الحق وهو أقرب الفرائض ولا يحتجب بإحدهما عن الأخر، بل يرى الوجود الواحد بعينه حقا من وجه وخلقا من وجه. فلا يحتجب عن شهود الوجه الواحد».

وفي هذا المعنى قال «ابن العربي الحاتمي» - رضي الله عنه -:

**وفي الخلق عين الحق ان كنت ذا عين ☆ وفي الحق غير الخلق إن كنت ذا عقل**
**وإن كنت ذا عين وعقل فما ترى ☆ سوى عين شيء واحد فيه بالشكل**

ومن الغريب ما يطلبه لسان المعرفة من المحو والاثبات في آن واحد لما هناك من رائحة التناقض، ولولا لطف الله ما استقام سير

العارفين، لما يطرأ عليهم من وجود المحو والذهاب الكلي حتى لم يبق منهم أثر ألبتةً، ومع هذا لم يخرجوا عما طلب منهم من القيام بحقوق الحق عز وجل؛ فترى الواحد منهم ينبئك حاله على أنه لا يطيق أدنى امتثال، ومع أنه جامع بين الأحوال والأعمال، وذلك معلوم من سيرتهم.

ثم قال رضي الله عنه:

## ثَبَاتُ الأَقْدَامِ سُلُوكُ طَرِيقِ الإِتِّبَاعِ، وَالإِهْتِمَامُ بِالرُّسُلِ الْكِرَامِ

لما قدم المصنف - رضي الله عنه - الكلام على ما يطرأ على العارفين من تجلي الألوهية حتى يخرجهم عن مقتضى العبودية لما يحصل لهم من التلاشي والامتحاق، فكان الثبات في ذلك المقام والاهتمام بالرسل الكرام عزيزا جداً. وكيف لا وقد خرج المريد بذلك التجلي عن وجوده، وعن كل نسبته التي توجب تكليفه. وإذا كان العبد مفقودا فمن ذا الذي توضع عليه الحدود. وقد قيل في هذا المعنى:

**إن قلت عبد فالعبد ميت ☆ أو قلت رب أنى يكلف**

ومع ذلك قد يثبت في ذلك الحال، ويعمل بالاجتناب والامتثال بحفظ من الله والعناية الأزلية التي تأخذ بيده، ونور المصطفى ﷺ الذي يحاكيه، وتترادف الخواطر على باطنه ترادفا عظيما (**ولولا أن**

**ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا** ) « الإسراء : 74 ». فلسان المعرفة يدعو إلى الثبات كما يدعو إلى المحو، فهو يناديه: الثبات، الثبات! إلى أن تثبت قدمه فيما تكلفت به العبيد، كما يثبت له القدم في التوحيد، فينبت عندئذ نباتا حسنا ( **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا** ) « الأعراف : 58 ». ولا يكون الثبات إلا بعد الثبات، فتخلع عليه حينئذ خلع القبول، ويكسى حلة الوصول، ويكون على سواء السبيل محمولا، تابعا للشرع معقولا ومنقولا، وإن كان ما هو عليه من وراء العقول. هذا وان حقيقة الولاية هي التخلق بأخلاق الرسول ﷺ بقدر الاستطاعة، فتكون الحقيقة حاله، والطريقة أفعاله، والشريعة أقواله. ولهذا قال المصنف: « ثبات الأقدام سلوك طريق الإتباع » أي سلوك طريق من تقدم من أسلافنا، لأن سيرتهم لا تخفى على العاقل. فمن لم يسر بسيرهم يكون غير موصول بمددهم، ومن ذا الذي يغنى عن القيام بوظائف الدين، وقد قام بها سيد المرسلين وإمام الأولين والآخرين، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه، ولما قيل له في ذلك، قال: ( **أفلا أكون عبدا شكورا** ).

فمن طلب حصول المرام فعليه بثبات الأقدام. ومن حصلت له النعمة فعليه بتمام الخدمة. ومن لم يشكر النعمة فقد تعرض لزوالها.

قال ﷺ: ( **قيدوا النعم بالشكر** ) ومن أراد الزيادة فليقم بوظائف العبادة (**لئن شكرتم لأزيدنكم**) «إبراهيم : 7 ». وما ألطف قول بعضهم:

**لئن شكرتم لأزيدنكم ☆ مقالة الله التي قالها**
**فالكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشكر أبقى لها**

وقال بعضهم أيضا :

**إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ☆ علي له في مثلها يجب الشكر**
**وإن بلوغ الشكر إلا بفضله ☆ وإن طالت الأيام واتصل العمر**
**إذا مس بالسراء عَمَّ سرورها ☆ وإن مس بالضراء يعقبها الأجر**
**فما منهما إلا له فيه نعمة ☆ تضيق بها الأوهام والسر والجهر**

وحاصل الأمر أن ثبات الأقدام في الطريق هو سلوك سبيل الرشاد **( أفمن كان على بيّنة من ربه و يتلوه شاهد منه )** « هود : 17 » فشاهدُ الحقيقةِ هو سلوكُ الطريقِ. فقد كان القوم عليهم تمام الرضى والرضوان مع وصولهم لعين التحقيق وفنائهم ومحوهم وتلاشيهم، لا يفترون على الأعمال، وبها حصلوا درجة الكمال. وأنت أيها المريد تراهم وتسمع ذكرهم كيف كانوا يكتمون ما أمر الله بكتمانه، ويجتهدون فيما أمر الله بإعماله، فمن لم يسر بسيرهم ويهتم بالرسل الكرام، ويتشبه بأحوالهم، وينظر كيف كان صدقهم وعزمهم وزهدهم وصبرهم لم يجيء منه شيء. ومن اتصف بأحوالهم، فلا جرم أنه يكون من أتباعهم ويصدق عليه لقب « أمين »، ويكون آخذا لسنة سيد المرسلين، ويدخل فيمن **( أنعم الله عليهم من النبيئن والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولائك رفيقا )** « النساء : 68 » ومن لم يرض بهذه الرفقة فهو أحق بالشقاء، ولو بلغ ما بلغ. ولا يحسب أن ما حصل عليه من كسبه، فقد يأخذه الله من حيث لا يشعر **( ومن يتعد حدود الله فأولائك هم الظالمون )** البقرة : 229 ». قال ﷺ : **( إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها )** وقال أيضا : **( إذا رأيت الله يعطي العباد**

**ما يشاؤون وهم مصرون على المعاصي، فاعلم أن ذلك استدراج منه لهم )** ثم تلا : **(فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)** «الأنعام: 44» أجارنا الله والمؤمنين من كل سوء.

ثم قال رضي الله عنه:

## أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ عِمَارَةُ الأَوْقَاتِ بِالْمُوَافَقَاتِ

المراد بعمارة الأوقات ضبط الأنفاس ودوام الموافقة في كل وقت بما تقتضيه حقيقته، إذ العارف لا يعرف أهو عالم بما يحتاج إليه الوقت من الموافقة أم لا ؟ لأن طاعة العارف ليست كطاعة مثله، وإذا كان من عوام المسلمين فعمارة الأوقات تكون في حقه محصورة بين ذكر وفكر، وامتثال واجتناب. ويكون وقته معمورا بأنواع البر لا خاليا منها، ولا يتركه يفوت بغير فائدة، لأن كل وقت له طاعة تناسبه. والإنسان من حيث هو مطلوب بعمارة الأوقات، والوقت مار على الإنسان. فهو إما له وإما عليه. فينبغي أن يكون مفتشا للأحوال ليفصح بما حصل في الوقت المومئ إليه عند الكبير المتعال من غير زيادة ولا نقصان. وما من يوم إلا وينادي: « يا ابن آدم، أنا يوم عليك جديد والحق عليك شاهد ». فالوقت لا يترك عليك شيئا إلى يوم القيامة يحصيه عليك ويأتيك به **( لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها )** « الكهف : 49 » لأنه شاهد صادق، فتراه يطلبك بلسان الحال

في كل وقت وحال قائلا : العمل العمل ! ( **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ) « الزلزلة : 7 - 8 » . ولنا في هذا المعنى :

**ألا فوقت المريد ظرف لفعله ☆ يملؤه بما شاء فهو له شرب**
**فهو عصير الخمر يعصر مما شاء ☆ فإن عصر عذبا فيشرب منه عذبا**

وقد قيل أيضا :

**أنت بما سقيت شارب ☆ من رحيق كان أو كدر**
**سهمك في الغير فيك صائب ☆ ما لك من نصله مفر**
**يا ذا الذي ظن أن يصيب ☆ بسهمه وهو لا يصاب**
**أبعدت عن نفسك القريب ☆ وأخطأت في موضع الصواب**

ثم قال رضي الله عنه :

## مَا فَاتَ لاَ يُسْتَدْرَكُ ، لِأَنَّ الْوَقْتَ الثَّانِي غَيْرَ الأَوَّلِ

أي ما فات من حقوق الأوقات لا يمكن استدراكه ، لأن الوقت الثاني غير الأول ، فهو ناسخ له وأنت مطلوب به ، أي بقيام حقوق الله فيه ، وإذا أردت استدراك ما فات ، فتضيع ما هو آت . وذلك لا يمكن . ولهذا ينبغي لك أن تكون فطنا راسخ القدم ، متمكنا في وجود التلوين ، لأن كل الأوقات عليك ورقات ، وأنت ناسخ فانسخ ما شئت ما طويته لا تنشره اليوم ، وما فات لا تستدركه ، وليس لك إلا الوقت الذي أنت فيه ، فحافظ عليه ، لأنه مار عليك بأسرع مسير ولم يلتفت إليك . فينبغي لك أن تقطعه بأفعال البر ، وإلا قطعك بالبطالة .

ثم قال رضي الله عنه:

## ثَمَنُ التَّصَوُّفِ تَسْلِيمٌ كُلُّهُ

لكل شيء ثمن، وثمن هذا الشأن بذل الكل. ومن ترك لنفسه أدنى شيء يستعين به في رَعمه انقطع عن ربه. فسلم كلك أيها المريد ولا تترك لنفسك شيئا، فإن قبل منك هذا التسليم، فيا حبذا! وقل كمن قال:

**مالي سوى روحي وباذل نفسه ☆ في حب من يهواه ليس بمسرف**
**فلئن رضيت بها فقد اسعفتني ☆ يا خيبة المسعى إذا لم تسعف**

وقد قيل: ثمرة حضرة القدس بذل الأرواح والنفوس. فالعارفون لا يصح لهم ذلك حتى يبذلوا الكل فيأخذوا وقتئذ الكل.

ولبعضهم في هذا المعنى:

**فنيت كلي في كلك ☆ هذا جزاء من يحبك**
**عجزت عند خطابك ☆ والكل مني جوابك**

أنت تريد أن تترك شيئا لنفسك وتزعم أنك مريد الحق. كلا! ولولا لطف الله ما كان لك شيء، لأن لكل شيء مهرا، تطلب ذات الحق وتبخل بذاتك بل بنفسك، وما لك ومألوفك ومعتادك فلا تصح لك، ولا تصح لك الارادة حتى تسلم فيما تريد (**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**) «آل عمران: 92». فطلب الحق لا يصح لك إلا إذا سلمت له ذلك، لان العزيز لا يشترى إلا بالعزيز (**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**) «التوبة: 111». فهذه

الجنة كانت تحت ظلال السيوف اشتراها من عرفوها وخلقوا لأجلها، اشتروها بأنفسهم وأموالهم حقيقة لا مجازا، سلموا انفسهم للهلاك فقاتلوا وقتلوا، فكان لهم ما طلبوا، وليس ذلك إلا ابتغاء مرضاة الله.

ولبعضهم في هذا المعنى:

**إن يكـــن يرضيـــك قتلي ☆ فـــاجعل المـــوت في قـــربي**
**أنـــت قصـــدي ومنـــائي ☆ فتعطـــف يـــا حبيبي**

وأنت تزعم أنك مريد الحضرة الإلاهية، وكشف الاستار عن الأسرار الربانية، ولا زلت تختار؟!. (**ما كان لهم الخِيَرَةُ من أمرهم**) « الأحزاب : 36 ». لو كنت تعلم ما أنت بصدده لاشتريته بكلك ومالك في الدين والدنيا، واستحييت بذلك الثمن الزهيد البخس في جانب هذا الشان النفيس.

كفاه كرما أن قبل منك ذلك العوض وهو لا يقبله منك إلا استبدلك بغيره، وإلا لا يصلح لشيء فهو سواد في سواد. أيش أنت وأيش اعمالك؟ ومن أين أتيت ومن أين لك ذلك؟ (**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**) « الأحزاب : 23 ». خلفوا الكل وراءهم وطلبوا الحق بالحق (**فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له**) «مريم : 49». كانت الهبة موقوفة على الاعتزال، ومن لم يعتزل الخلق لم يظفر بالحق. رجال كانوا إذا توجهوا لله تركوا ما سواه. لم يحل لهم ما في الكون طرا. وعند تركهم المزابل دخلوا المنازل. فتقبلهم الحق عز وجل قبولا حسنا.

لا تدعي محبة الله أيها المريد، وفي قلبك حب لغيره، لأنه لا تصح لك محبة حتى يهون عليك كل شيء في طلبه. فلو اتصفت

بهذا الوصف نصف يوم، وعلم الحق ذلك من قلبك لأخذك من بين الخلق وهم ينظرون. الحق يشتاق إليك كما تشتاق إليه. فهو ينظر إلى قلبك، كلما وجده فارغا كليا، أخذه كليا.

ولبعضهم في هذا المعنى:

**أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ☆ فصادف قلبا خالياً فتمكنا**

فهو لا يرضاك أن تكون لغيره. فتسبب - بارك الله فيك - واتصف بشعار القوم، فإن التصوف كله صفاء، أو تقول كله أخلاق. وليس هو كما يزعم بعض المتشردين على حد ما قيل:

**ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ☆ ولا بكاؤك إن غَنّى المُغَنُّونَ**
**ولا صياح ولا رقص ولا طرب ☆ ولا اضطراب كان قد صار مجنونا**
**بل التصوف أن تصفو بلا كدر ☆ وتتبع الحق والقرءان والدينا**
**وأن ترى خاشعا لله مكتئبا ☆ على ذنوبك طول الدهر محزونا**

وقيل أيضا:

**ولست امنح هذا الإسم غير فتى ☆ صاف فصوفي حتى سمي الصوفي**

الفصل الثامن عشر

# في الخمـــول وفضـائـلـــه

قال رضي الله عنه:

## الْخُمُولُ نِعْمَةٌ عَلَى الْعَبْدِ لَوْ عَرَفَ شُكْرَهَا

الخمول نعمة جامعة لأكثر النعم لمن عرفها وحققها وتدبر ما فيها من صفاء الأوقات وحسن الموافقات وأنواع القربات، والأنس بالله والتوجه إليه والاكتفاء بمعرفته. فمن ذاقها وحققها فلا محالة يشكر الله عليها ويستعمل كل الوسائل لدوامها، كما يفر من الشهرة ويستعمل الوسائل المناقضة لها لكي يصفو له الوقت بينه وبين محبوبه، لأن في الشهرة ما يكدر صفوه. وهذا سبيل الصديقين قد استعملوا أكثر الوسائل في ذلك حتى لا يعرفوا من بين الخلق. وربما تعاطوا شيئا مذموما في ظاهر الشرع لأجل التخيل، ولا تحسبنهم يستعملون المنكرات وحاشاهم من فعلها، وإنما يوهمون الغير باستعمالها كما يروى عن بعضهم: أنه دخل الحمام ولبس من ثياب الناس أفخرها وخرج من بينهم لكي ينظروا إليه، فأخذه صاحب الحمام وأخذ يصفعه ويوبخه، واشتهر أمره بالسرقة حتى كان يعرف عند الناس بلص الحمام. ويروى عن غيره، وقيل: هو سيدي «عبد الرحمن المجذوب» أو بعض من تلامذته: أنه اشترى عنبا ودخل به لبعض البساتين وأخذ في الأكل فدخل عليه صاحب البستان، فمسكه وأخذ يصفعه وفضحه بين الملأ. وهكذا.

وسيرة القوم - رضي الله عنهم - في مثل ما ذكرنا كخرق العوائد وفعل كل ما تأباه النفس مشهورة، لكي لا يألفهم أحد، إلا من أخذ الله بيده. وكل ذلك عكس نفوس المريدين، لأن النفس قد تسمح في بقية الحظوظ دون الاشتهار. ومن بقيت من نفسه بقية لم يحصل سر الألوهية. وقد قال بعض المريدين يوما لشيخه: إن نفسي تحدثني. قال له أَوَ لَكَ نفس؟ قال: نعم. قال له: المؤمن بلا نفس. فهكذا كانوا يجتهدون في زوال بقيتها من كل الوجوه، وكلما جنح المريد للشهرة لم يتم له الإخلاص في التوحيد. قال بعضهم: والله ما صدق الله عبدٌ إلا سرّه أن لا يشعر بمكانه. وقال رجل «لبشر» - رضي الله عنه -: أوصني. فقال له: أخمل ذكرك وطب مطعمك. وقال بعضهم: لا يجد حلاوة الآخرة من أراد أن يعرف الناس. وقال «الفضيل» - رضي الله عنه -: بلغني أن الله عز وجل يقول في بعض ما يمن به على عبده: (**ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك؟**) وما أحسن ما قيل في الحكم العطائية: «ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه». ولسلطان العاشقين في هذا المعنى:

**وأخلص لها واخلص عن رعونة ☆ افتقارك من أعمال بر تزكت**
**وعاد دواعي القيل والقال وانج من ☆ عوادي دعاوٍ صِدْقُها قصْدُ سُمْعةِ**
**فألْسُنُ من يُدّعى بألسن عارف ☆ وقد عبرت كل العبارات كلت**
**وما عنه لم تفصح فإنك أهله ☆ وأنت غريب عنه إن قلت فاصمت**
**وفي الصمت سَمْتٌ عنده جادَ مُسْكَةٍ ☆ غدا عبده من ظنه خير مسكت**
**وكن بصرا وانظر وسمعاً وعهْ وكن ☆ لسانا وقل فالجمع اهدى طريقة**

**ولا تتبع من سولت نفسه له ☆ فصارت له أمارة واستمرت**

فكان مقياسهم في الطريق - رضي الله عنهم - على المريد هو أن يكون ولا شيء، أي لا رتبة له في الوجود ( **يا أهل يثرب لا مقام لكم** ) « الأحزاب : 13 ». حتى إذا وصل لما ذكرناه تمحضت آنيته لحمل الأسرار.

سئل يوما مولانا « العربي الدرقاوي » - رضي الله عنه - عن مهر الطريق ؟ فقال : إسقاط المنزلة. ومن اللفظ المتداول بين القوم « لا تصلح طريقتنا هذه إلا لمن كنست بأرواحهم المزابل. فمن لم يكن أرضا لم تمطر عليه السماء ». وقد كان عيسى عليه السلام يقول لأصحابه : ( **أين تنبت الحبة ؟** فيقال له في الأرض. فيقول : **كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب خامل، ولا تبرز إلا من لسان متواضع ذاكر** ). ( **ما كان لنبيءٍ أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض** ) « الأنفال : 67 ». وكان « لقمان الحكيم » يقول لإبنه : ( **ولا تمش في الأرض مرحا، إن الله لا يحب كل مختال فخور** ) « لقمان : 18 »

وعليه ينبغي للمريد الصادق أن يخمل ذكره ما استطاع، فلا يكون النبات إلا بعد الثبات. والأحاديث الواردة في مدح الخمول وذم الشهرة تغنيك عما نلقيه عليك. فمنها ما يروى عن « أبي أمامة » - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : ( **يقول الله عز و جل : إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا، فصبر على ذلك ثم نفض يده. فقال : عجلت منيته، قلت بواكيه، قل عزاؤه** ).

وعن « معاذ بن جبل » - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : (**إن يسيرا من الربا شرك ، وأن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، وأن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة**) .

وروي عن « أبي هريرة » - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ في حديثه الذي نوه فيه باسم « اويس القرني » ويذكره ، وينبه على عظيم أمره - رضي الله عنه - قال : ( **بينما نحن عند رسول الله ﷺ في حلقة من أصحابه إذ قال : ليصلين غداً معكم رجل من أهل الجنة . قال أبو هريرة فطمعت أن أكون ذلك الرجل ، فغدوت فصليت خلف النبي ﷺ فأقمت في المسجد حتى انصرف الناس فبقيت أنا وهو ﷺ . فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل أسود متزرا بخرقة ومرتديا بمرفقة . فجاء حتى وضع يده في يد الرسول ﷺ ثم قال : يا نبي الله ادع الله لي بالشهادة ! فدعا له النبي ﷺ بالشهادة . وإنا لنجد منه ريح المسك الأذفر . فقلت : يا رسول الله أهو هو ؟ قال : نعم ، إنه لمملوك بني فلان . قلت أفلا تشتريه فتعتقه يا نبي الله ؟ فقال : وأنى لي بذلك ، إن كان الله تعالى يريد أن يجعله من ملوك الجنة يا أبا هريرة ، إن لأهل الجنة ملوكا وسادات ، وأن هذا الأسود أصبح من ملوك الجنة وساداتهم . يا أبا هريرة إن الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رؤوسهم ، المغبرة وجوههم ، المخمصة بطونهم من كسب الحلال ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا**

**المتنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن ماتوا لم يشهدوا. قلت: يا رسول الله، كيف لنا برجل منهم؟ قال: ذلك أويس القرني. قلت: وما أويس القرني؟ قال: أشهل، ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، آدم شديد الأدمة، ضارب بذقنه إلى صدره، رام بنظره إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرءان، يبكي على نفسه، ذو طمرين، له إزار صوف، ورداء صوف، مجهول في أهل الأرض معروف في أهل السماء، لو أقسم على الله لأبر قسمه، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد أدخلوا الجنة ويقال لأويس القرني قف فاشفع، فيشفعه الله في مثل عدد ربيعة ومضر، يا عمر ويا علي إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه ليستغفر لكما).**

فانظر - بارك الله فيك - فضل الخمول وما دلت عليه هذه الأحاديث الشريفة، وراجع سيرة القوم لكي تقتدي بأحوالهم، وانظر كيف كانوا يستترون مع شرف رتبتهم وعلو مقامهم. وكفى ما بلغك عن أويس القرني - رضي الله عنه - وما له من الأوصاف المحمودة والقدر العظيم المشهود له من رسول الله ﷺ، ومن محاسنه اتصافه بالخمول خصوصا لما ظهر برفعة القدر، وانتشار حديث رسول الله ﷺ بين الصحابة في شأنه وتنويه «عمر» - رضي الله عنه - به على المنبر. فلما رأى أن الناس عرفوا حاله هرب منهم واختفى عنهم، ولبس أمره عليهم برعي الإبل وغير ذلك. وقيل لعمر لما سأل

قومه عنه ما فينا أخمل منه ذكرا. فلما لقيه هو وعلي - رضي الله عنهما - وسألاه من هو ؟ فقال راعي غنم وأجير قوم، أو ستريا ذلك أويسا ؟ فلما سألاه عن اسمه قال لهما : عبد الله. ثم سألاه عن إسمه الذي سمته به أمه فامتنع أن يجيبهما عن ذلك. فلما أخبراه بوصف النبي ﷺ وأنهما عرفاه بذلك. قال لهما : عسى أن يكون ذلك غيري. فلما قالا له أخبرنا رسول الله ﷺ أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء، وطلبا منه أن يوضحها لهما، لم يجد بدا من أن يوضحها لهما، ولعله أراد بتوضيحها لهما صحة حديث رسول الله ﷺ ثم امتنع بعد ذلك من أن يلقاهما مرة أخرى. من شرح « ابن عباد ».

وعليه أخي إذا أردت أن تفتش عن سر الله وتأخذه من أربابه فإنك تجده في الغالب عند من لا يعتنى بهم في الطريق المحتقرين في نظر العامة. فأولائك لهم سر مع الله. واعلم أنه لا توجد الخبايا إلا في الخفايا. ألا ترى إذا كان لك مال وأردت أن تدفنه، فهل تضعه في ممر الخلق، أو في بقاع الأسواق، كلا ! إنما تختار له أخفى الأماكن وأحقرها في نظر الخلق. ومن هنا تفهم قوله تعالى : ( **ومن نعمره ننكسه في الخلق** ) « يس : 68 ».

وما أحسن ما قيل في هذا المعنى :

**ولـرُب أشعث حقرتـه دلوقـه ☆ ولدى المليك هو العزيز الغـالي**
**خمص البطون لما بهم مـن فاقـة ☆ شعث الرؤوس لروعة الأهـوال**
**لم تخـل أرض منهم قـد حكمـوا ☆ ذات اليمين بهـا وذات الشمال**
**سـوى لهـم بين الثريـا والثرى ☆ والفرش والعرش الرفيع العالي**
**لا ينظرون إلى سـوى محبـوبهم ☆ شغلا بـه عن سـائر الاشغـال**
**فهم إليـك وسيلتي يـا سيـدي ☆ إلا وصلت حبـا لهـم بحبـالي**

ثم قال رضي الله عنه:

## الْغَيْـرَةُ أَنْ لاَ تَعْـرِفَ وَلاَ تُعْـرَفَ

غيرة العارف على معروفه أن لا يعرف سواه، أي لا يثبت له وجوداً ولا عدماً، فضلا عن أن يشاهده، فهو لا يعرف أحداً سوى الله لما تقدم من كلام المصنف: «من عرف الأحد لم يعرف أحدا». فهذا شق من الغيرة.

والشق الثاني أن لا تَعْرف ولا تُعْرف أي فلا تتعرف إلى أحد بأنك عارف، فهذه هي الغيرة على معروفك، لأن الغير إذا عرفك بما أنت عليه يلزمك أن تعرفه وتشاركه. وذلك من عدم غيرتك عليه، ولو اشتدت غيرتك لفعلت ما فعله «أويس القرني» - رضي الله عنه - وقد بلغك تستره واختفاؤه، وكل ذلك من شدة غيرته على محبوبه. فهكذا تكون الغيرة لمن يؤمر بالظهور.

**وتراني في هواها لابـس اللـونين ☆ غيرة مني عليهـا أن ترى بـالعين**

إذ لربما يكون الظهور محلا بصدقك في عبوديتك إذا تعرفت للخلق بأنك عارف للحق، لما قيل في الحكم العطائية: «استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك».

وحاصل الأمر من غيرة المحب على محبوبه، الانفراد به وعدم التشوق إلى غيره، وسيرة القوم في تسترهم لئلا يطلع الخلق على خصوصيتهم معلومة حتى قيل: ربما يتجاهل العارف وهو بين الجهال حتى لا يعرف من بينهم، وإذا سألوه عن أمر لا يجاوبهم لعلو مقامه وشرف رتبته. ولما ذهب مولانا «العربي الدرقاوي» ليأخذ عن

سيدي « علي الجمل » - رضي الله عنهما - وكان له ذلك بإلهام من الله، أو منام، فأخذ سيدي « علي الجمل » في رميه بالحجارة، وقال له: من أعلمك أنني من ذوي الخصوصية، إذهب إلى أمك. ففعل معه ذلك مرارا إلى أن حقق الصدق منه.

وكان يقول: منهل شرابنا شيخ مشائخنا سيدي « محمد بن قدور الوكيلي » - رضي الله عنه -: « إذا طلبونا بمعنى الخصوصية هربنا منهم إلى غاية الجهل، فلن يصل إلينا أحد منهم، ونستريح من شرهم ».

وكان أستاذنا سيدي « محمد البوزيدي » - رضي الله عنه - كثير التردد على الأسواق وغيرها، وكان يقضي مآربه بيده، فقلنا له: ألا تكلف من ينوب عنك في قضاء مآربك؟ فقال: أتريدون أن أحتجب عن الخلق؟ ألم يكفكم أني معهم ولا يراني أحد منهم؟ أي لا يراه أحد أنه من ذوي الخصوصية، وكان يريد بذلك الاختلاط مع الخلق، الخفاء، حتى لا يعرف من بينهم، فلا يصل إليه إلا من أراد الله أن يوصله إليه. وهذا إذا كان الولي لم يؤمر بإظهار ما خفي عن الخلق من خصوصيته، وإلا فله أن يفصح بما خصه الله عز وجل به. وقد كان بعض السلف إذا أصبح يقول: صليت البارحة كذا وكذا من ركعة، وتلوت كذا وكذا من سورة. فيقال له: أما تخشى من الرياء؟ فيقول: وبحكم! هل رأيتم من يرائي بفعل غيره. وقد جاء في الخبر، أن السر أفضل من العلانية، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به. وقد كان إمام هذه الطائفة « أبو الحسن الشاذلي » - رضي الله عنه - تضرب له الدفوف وترفع إليه الأعلام وينادي في الطريق:

أيها الناس، إن القطب مار في طريقكم هلموا إلى حاجتكم. قال في لطائف المنن: «اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والإعتناء بشهوده». قال الله تعالى: ( **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ) «التحريم: 3». وقال سبحانه ( **أليس الله بكاف عبده** ) «الزمر: 35». وقال: ( **ألم يعلم بأن الله يرى** ) «العلق: 14». وقال تعالى: ( **أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ) «فصلت: 53» فمبنى أمرهم في بدايتهم على الفرار من الخلق، والانفراد بالملك الحق، واخفاء الأعمال، وكتمان الأحوال، تحقيقا لفنائهم، وتثبيتا لزهدهم، وعملا على سلامة قلوبهم، وحبا في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكنوا من اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء رسخوا، وهناك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم. إن شاء أظهرهم هادين لعباد الله. وإن شاء سترهم، فاقتطعهم عن كل شيء إليه. فظهور الولي ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله تعالى له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء، لا الجلاء كما قدمنا.

ثم قال رضي الله عنه:

## مَنْ أَرَادَ الصَّفَاءَ فَلْيَلْزِمْ الْوَفَاءَ

من أراد أن يصفو له ما حصل عليه فليلزم الوفاء بما عاهد الله عليه **(ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجراً عظيما)** « الفتح : 10 » . ما من سائر أو واصل إلى الله إلا وقد عقد عقداً مع الله في سره، والله عليم بالسرائر. فمن أراد صفاء الحال وتمام المنة فليوف بذلك. ومن عدم الوفاء حرم الصفاء. وقد يحتجب العارف عن مقامه لإساءة أدبه وهو لا يشعر ولعدم وفائه بما يستحق المقام. وما من مقام إلا ويطلب صاحبه بالوفاء بحقه، ومن لم يوف بذلك يقول له لسانُ حاله: تنح عني فلست من أهلي. فإن لكل مقام أناساً ولكل مشرب كأسا. الصفاء مقرون بالوافاء. **(رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)** « الأحزاب : 23 » .

كان القوم – رضوان الله عليهم – يوفون بالعقود، وكلما مالت نفس أحدهم أدنى ميلان إلا وعوقبت ظاهرا شفقة من الله على بواطنهم. قال « جعفر بن نصير » – رضي الله عنه –: دفع إلي « الجنيد » درهما وقال: اشتر به التين الوزيري فاشتريته. فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها في فيه ثم ألقاها وبكى وقال: احمله. فقلت له في ذلك، فقال: هتف بي هاتف وقال لي: أما تستحيي! شهوة تتركها من أجلي ثم تعود إليها.

وقال « عتبة الغلام » « لعبد الواحد بن أبي زيد » – رضي الله عنهما –: إن فلاناً يصف من قلبه منزلة ما أعرفها. قال: لأنك تأكل

مع خبزك تمرا وهو لا يزيد مع الخبز شيئا. فقلت: إن تركت أكل الخبز عرفت المنزلة؟ قال نعم. وغيرها، وأخذ يبكي. فقال له بعض أصحابه: لا أبكى الله لك عينا، أعلى التمر تبكي؟ فقال «عبد الواحد»: دعه فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك، لأنه إذا ترك شيئا لم يعد إليه أبدا.

قال الشيخ «أبو حامد الغزالي» - رضي الله عنه -: والأصل المهم في المجاهدة، الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسباب ذلك، ويكون ذلك من الله ابتلاء واختبارا، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عود نفسه كسر العزم ألفته وفسدت. وإذا اتفق منه كسر عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه أي على كسر العزم.

روي أن «أبا الخير القسطلاني» - رضي الله عنه - اشتهى السمك سنين، ثم ظهر له ذلك من موضع حلال، فلما مد يده إليه ليأكل، دخلت شوكة في أصبعه فذهبت بها يده. فقال: يا رب هذا لمن مد يده إلى شهوة حلال، فكيف بمن مد يده إلى شهوة حرام.

قال الإمام «أبو القاسم القشيري» - رضي الله عنه - وما أصدق ما قال: «إن من أدب في دنياه فيما يتعاطاه من متابعة هواه، فقد خفف عنه في عقباه، بل ظهر بالتأدب جوهره ومعناه، فمن ترك شيئا لله فلا ينبغي أن يعود إليه».

ثم قال رضي الله عنه:

**إِنْ أَقَامَكَ ثَبَّتَكَ، وَإِنْ أَقَمْتَ بِنَفْسِكَ سَقَطْتَ**

إن أقامك أيها المريد مولاك في حال أو مقام ثبتك وتكفل بك، فأرح نفسك، ولا تتكلف بشيء، بخلاف إذا أقمت بنفسك وتكلفت للمقام أو الحال فإنك تسقط لا محالة، لكونك وكلت نفسك لنفسك وحملتها ما لا تطيق، ولو كنت تفهم عن الله، لألقيت إليه مقاليد أمورك، حتى إذا أقامك في مقام ثبتك فيه وعصمك من طوارئه، وكيف تقيم نفسك أو تختار وأنت ادعيت مع الله عدم الإختيار، لأن سلب الإرادة من شأن الأخيار كما قيل: في هذا المعنى:

**تكـون مريـدا ثم فيـك إرادة ☆ إذا لم تُرِدْ شيئـا فـأنت مريـد**

ألا ترى لما أقام الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ في مقام الإرشاد وأنزل عليه قوله: ( **والله يعصمك من الناس** ) « المائدة: 67 ». فكان الحق تبارك وتعالى ينوب عنه في كل شيء، لا يتكلف لشيء حتى أنه لما ألقى ما ألقى على المشركين نزل قوله تعالى: ( **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ) « الأنفال: 17 ». فكان الحق نائبه وناصره حسا ومعنى، ظاهرا وباطنا. فمن تثبيته له في الباطن قوله تعالى: ( **لنثبت به فؤادك** ) « الفرقان: 32 ». ومن كفالته له في الظاهر قوله أيضا: ( **وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ) « طه: 132 ». هكذا كان ﷺ، وكل من كان على قدمه كذلك، إذا أقامه الله في حال هو المتكفل له بما يستحق ذلك الحال والمقام؛ وقد وقع لي مثل ذلك لما أقامني الله في

مقام الإرشاد، وكنت لا أرى لنفسي استحقاق ذلك، ولكن لما تحققت إقامة الله إياي في ذلك المقام انطرحت بين يديه بدون أن أتكلف إلى شيء، لعدم رغبتي فيه، وقلة استعدادي لذلك الشان. فكان الحق ينوب عني في أشياء لا خبر لي بها. وقد أخبرني أكثر الفقراء على اختلاف طباقتهم بكرامات ظهرت لهم أفادتهم الرسوخ في الطريق، والتعظيم لجنابنا. فمن ذلك ما أخبرني به بعضهم أنه راني دخلت عليه السجن وأخبرته أنه بقيت له ثلاثة أيام فكان الأمر كذلك. وغيره أخبرني بأني دخلت عليه الدار وأخبرته بعلوم إلى غير ذلك من الأمور الحاصلة يقظة فضلا عن المرائي التي يتعذر حصرها. وفي كل يوم يأتي أحد بخبر يصحح اعتقاده في الطريق. وأغلب الكرامات الصادرة لا خبر لي بها، فالحق تبارك وتعالى ينوب عني في صفاء قلوب أوليائه ( **الله وليُّ الذين ءامنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ) « البقرة : 257 ».

وأما من قام في حال بنفسه لا يثبت في الغالب بل يسقط لصعوبته مع طروء المحن عليه، وذلك لعدم صلاحيته لذلك الحال، أو المقام، إذ لو كان صالحا له لأقامه الحق فيه بدلا أن يقيم نفسه. ومن أدب العارف وكمال معرفته أن يفهم عن الله.

ثم قال رضي الله عنه:

**قَالَ تَعَالَى: (وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً) إِلَى الإِسْتِمَاعِ مِنْـهُ وَالتَّبْلِيـغِ عَنْـهُ**

فهذا صراط الله القويم ونهجه المستقيم. فمن وفقه الله للاستماع منه والتبليغ عنه، فقد وفقه الله إلى ما كان عليه أنبياؤه عليهم الصلاة والسلام، وأخذ الحظ الأوفر من الإرث النبوي. فمن اهتدى لهذا السبيل لا يخشى عليه دنيا وأخرى، ومن مال عنه من المتصدرين للإرشاد لا محالة يسقط، لكون السبيل المومىء إليه لا يقبل الاعوجاج، وقد كان ﷺ لا ينطق إلا بوحي من الله (**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**) «والنجم: 3 - 4». ولا يبلغ إلا ما أمر بتبليغه (**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته**) «المائدة: 67». وكانت سيرة أصحابه وأتباعه كذلك على قدر إرثهم من مقامه (**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**) «البقرة: 253». فإنهم لا يزالون يسمعون من الله، ويبلغون عنه في كل لمحة ونفس، ولهذا استقام سيرهم وعظم شأنهم. قال عز من قائل: (**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا**) «البقرة: 143».

أخذوا - رضي الله عنهم - بما أخذت الرسل، وكيف لا وهم بدل عنهم وبهم استغنت هذه الأمة عن بعثة المرسلين. وقد قلت في ذلك:

**هم بـدل للرسـل في كل أمـة ☆ قاموا بدعوة الحق فاستوجبوا الفضلا**
**وضحوا معنى السبيل للحق وقاموا ☆ شهودا على التوحيد كما قام الأولى**

**هنيئا لهم من قوم قد جاد ربهم ☆ عليهم بقربه وبالرضى تجلى**

ومن المعلوم أن العارفين بالله لا يأخذون علومهم إلا من الله، ولا يبلغونها إلا عنه، وإن كان الوحي انقطع من حيث الأحكام، فإنه لم ينقطع من حيث الإلهام. فلو انقطع من حيث الإلهام عن أولياء الله عز وجل لما ثبتوا، وأي رابطة تبقى بينهم وبين الألوهية إذ انقطع عنهم.

نعم الرابطة موجودة وهي كتاب الله عز وجل لقوله ﷺ: ( **كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض** ) لكن هو رابطة من حيث ما احتوى عليه وصلاحيته لكل الأزمنة لمن فهم معانيه من العارفين، ولا يكون ذلك إلا بوحي من الله لهم، وورد من الحضرة الإلاهية يرد على قلوبهم لكي يتصرفوا في بعض خزائنه، ويظهروا في كل زمان ما يليق بأهله، فكان هو الرابطة لهم من حيث الباطن، وقائد لهم من حيث الظاهر. يأخذون من باطنه ولا يخرجون عن ظاهره. وكل ذلك بوحي من الله حسب مراتبهم عند الله.

وتمام الفائدة أن أولياء الله واقفون مع الله في كل وقت وحال، ولا زال يرد على قلوبهم من الأوامر والأسرار والمعارف والأنوار ما يبهر العقول حسب المقامات والدرجات والأحوال، فكل له مقام، ومهما تخلف ذلك على أحدهم تضيق عليه الأرض والدنيا بما رحبت حتى تكاد روحه تزهق، حيث لم يدر مراد الله في الفعل، حتى إذا تداركه الله ببيان ما اعتاص عليه وأراه الحق عيانا، فوقتئذ يفهم مراد الله من سره، فيكون حينئذ على بصيرة من فعله. فهذه سيرتهم مع الله. لا أوحش الله العالم منهم. فليس لأحدهم اختيار مع الحق عز وجل، كأنهم لم تحدث لهم إرادة في أنفسهم.

ولهذا قال رضي الله عنه:

**صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ الدَّلاَلَةُ عَلَيْهِ، وَالتَّبَرِّي مِنَ الْحَــوْلِ وَالْقُــوَّةِ**

أي مع كونه سائرا فيه ودالا عليه لا يرى لنفسه حولا ولا قوة في كل الأعمال، ومهما نسب لنفسه أدنى شيء يخشى عليه السقوط. وقد تقدم الكلام عما يليق بهذا المعنى.

ثم قال رضي الله عنه:

**اللَّهُمَّ فَهِّمْنَا عَنْكَ، فَإِنَّا لاَ نَفْهَمُ عَنْكَ إِلاَّ بِكَ**

هذا المقام من أشرف المقامات عند العارفين خصوصا الدالين على الله، وهو المسمى عندهم بوحي الإلهام. فلا يسير العارف تلامذته ونفسه إلا به مع إضافة أشياء إليه. إذ لو لم يفهم العارف عن الله لم يلبث أن يسقط من عين الله، لأنه حامل سر الألوهية، إذ لربما يضعه في غير محله، أو يتكلم به مع غير أهله، وبسبب فهمه عن الله ينزل الأشياء منازلها، ويوفي الأوقات مستحقها.

وهذه السيرة هي الفطانة الواجبة في حق المرسلين صلوات الله عليهم. ومن فاته الفهم عن الله فاته كل شيء. وفي مثل ذلك قلت:

**فمن يفهم عن الله عاش منعما ☆ يسير بسيره بصيرا على خبر**
**ومن جهل الأمور كان معذبا ☆ لم يدر حكمة الله في النفع والضر**

اللهم فهمنا عنك حتى تصير أقوالنا وأفعالنا صادرة منك، وعائدة إليك، وما توفيقي إلا بك.

ثم قال رضي الله عنه:

**مَنْ سَكَنَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ لِنَشْرِهِ، نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قُلُوبِ الْعِبَادِ عَلَيْهِ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسَ الطَّمَعِ فِيهِمْ**

أي من سكن إلى الخلق ليحبب نفسه إليهم لكي ينتشر صيته، ويذيع ذكره، ويعلو شأنه، فيكون له ذلك بعكسه ويفتضح بينهم، وينزع الله تعالى الرحمة من قلوبهم عليه، ويلبسه الله لباس الطمع، فيعرف بذلك ويظهر من بينهم، حيث كان لغير الله، فيسقط من نظرهم، وكل ذلك عقاب له حيث سكن لغير الله بسره، وطلب شيئا لم يصل إليه، وهو انتشار الصيت وعطف العباد عليه، وليس ذلك في وسعه **(لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم)** « الأنفال : 63 ». لأن كل ذلك موكول إلى الله عز و جل. ليس في طوق البشر، ولأن الله إذا أحب عبدا أو أراد ظهوره حببه إلى قلوب عباده لكي ينتفعوا به. وقد يسبل الله عز و جل رداء الخمول على بعض أوليائه غيرة عليهم ومحبة فيهم حتى لا يعرفوا من بين خلقه.

ثم قال رضي الله عنه:

## حُبُّ العُلُوِّ عَلَى النَّاسِ سَبَبُ الإِنْتِكَاسِ

من أعظم المضرات على المريدين حب العلو على المخلوقين. فبسبب حب العلو رجعوا للدنو. خلق الله تبارك وتعالى الناس أمة واحدة لا فضل لأحد على أحد إلا بفضل الله.

**الناس من جهة التمثيل أكفاء ☆ أبوهم آدم والأم حواء**
**فإن يكن هم من أصلهم نسب ☆ يفاخرون به فالطين والماء**

ثم فتح الله لهم باب الدنو ولم يأذن لهم في العلو. فمن أراد أن يتنزل له مجال رحب أي له أن يتنزل ما شاء. ومن أراد العلو منعه قوله عز وجل: (**وهو القاهر فوق عباده**) «الأنعام: 61».

قال شيخ مشائخ هذه الطائفة مولانا «العربي» - رضي الله عنه -: «الناس يتنافسون في العلو من هو أعلى، ونحن نتنافس في الدُّنُوِّ من هو أدنى». وقد سئل أيضا عن مهر الطريق، فقال: «إسقاط المنزلة». فمن طلب العلو بنفسه انتكس ورجع، ومن تواضع لربه تخلص وارتفع. قال ﷺ في وصيته لسيدنا «علي» - كرم الله وجهه -: (**لا تكن رأسا فإن الرأس كثير المصائب**). وفي حب العلو من المضار ما لا يدخل تحت حصر.

ثم قال رضي الله عنه:

## مَنْ لَمْ يَقُمْ بِأَدَبِ الْبِدَايَةِ كَيْفَ تَسْتَقِيمُ لَهُ دَعْوَى مَقَامَاتِ النِّهَايَةِ

أدب البداية شرط في صحة الولاية، إما ابتداء، وإما انتهاء، لأن العارفين قسمان: مجذوب وسالك، أو تقول: مريد ومراد. فمن لم يقم بأدب البداية حالة سلوكه لم تتحقق له النهاية، لما قيل: «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته» والعكس بالعكس.

فلا بد من أدب البداية. ومن تصحيح الأحوال والأفعال والأقوال حسب مقتضى قوانين التصوف. فإذا صحت البداية، فلا جرم أنه تستقيم له دعوى مقامات النهاية، وإلا فلا، لأنه أراد الوصول على غير طريق الوصول، والشرط مقدم على المشروط. هذه حالة السالك.

وأما المجذوب، فهو مأخوذ من حضرة الخلق إلى حضرة الحق، أو تقول: المحبوب، فيكون مطلوبا بأدب البداية حالة التدلي، أي الرجوع، لأنها فتنة ابتداء حيث لم يستعد لكونه أخذ من حيث لا يشعر. فعلى هذا يتلاقى هو والسالك في وسط الطريق، هذا في الترقي، وذاك في التدلي. فتكون غاية وصوله هي رجوعه للبداية، ولهذا يقال: حقيقة النهاية هي الرجوع للبداية.

وحاصل الأمر، من لم يكن على ظاهره أثر البداية لم تستقم له دعوى مقامات النهاية، لأن البداية مجاهدة والنهاية مشاهدة، وهما ريشتان للولي. فلا بد لكل واحدة منهما بحسب الطاقة والإمكان.

(**فاتقوا الله ما استطعتم**) « التغابن : 16 ». فالناس في ذلك طبقات، لأن تصحيح الأحوال هو شرط على كل حال. ومن لم يكن حاله مطابقا لمقاله، فليس له من المقام إلا الكلام، والكلام دون المقام حرام.

وحاصل الأمر، إن المريد لا تستقيم له النهاية إلا إذا أخذ من البداية، فكيف بمن لم يقم بأدب الظاهر تستقيم له أحوال الباطن؟ قال في الحكم العطائية: « ما بطن في غيب السرائر ظهر على شهود الظواهر ». وفي مثل هذا قلنا:

**فمن ادعى قرب الحق دون أدبه ☆ فهو على شك أظنه مغتر**
**ومن قام بالوصفين كان عند الله ☆ محمودا وعند الخلق صح له الفخر**

# خـاتمـــة الكتـــاب

هذا ما يسّر الله لنا فهمه، والكل من فضله ونعمه. **(لينفق ذو سعة من سعته)** « الطلاق : 7 ». ولا ممسك لفضله.

نرجو الله أن ينفعنا وينفع به، وأن ينفع من قرأه وحصل عليه. وهو على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، نعم المولى ونعم النصير.

إلهي منحتنا رشفة من بحرك فأسكرتنا عنا، فرجعنا بها إليك. فاقبلنا وأقبل علينا، إنك فرضت الإجابة على نفسك. فإننا دعوناك دعاء الخائف منك المتزر بك. فاحمنا، وقنا إنا هُدنا إليك، قائلين: نعوذ بعفوك من عقابك، ونعوذ بك منك، لا خيفة لنا إلا منك، ولا رجاء لنا إلا فيك، اقطع رجاءنا اللهم مما سواك، وقونا وثبتنا فيما فيه رضاك، وصل اللهم على من قام بدعواك، وعرفك وعَرَّفَكَ.

اللهم بحقه ثبتنا في معرفتك، وارزقنا حلاوة مناجاتك، بحرمة نبيك الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وأنواع الرحمات وكل الفضائل والتعظيم، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأتباعهم، وهب لنا اللهم محبتهم وارزقنا متابعتهم، إنك سميع عليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ من هذا الكتاب صبيحة السبت وهو اليوم العشرون من شهر الله رمضان المعظم، سنة ألف وثلاثمائة وثمانية وعشرين 1328 مضت من هجرة سيد المرسلين صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، ولا حولة ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

24 سبتمبر : 1910 م.

أيها القارىء الكريم

لا شك انك استفدت
من مطالعة هذا الكتاب الذي
انار لك سبل الرشاد فكريا وروحيا
ولهذا نقترح عليك قراءة كتاب

# المنح القدوسية

لنفس المؤلف .

والله ولي التوفيق

# الفهـــــــرس

| | |
|---|---|
| مقدمـــة الطبعـــة الأولـى | 5 |
| الفصـــل التـــاسع : في التوكل على الله عز وجل | 9 |
| الفصـــل العـــاشر : في الفقر وحقيقته وفضائله | 16 |
| الفصل الحادي عشـر : في الزهـد والقنـاعـة | 26 |
| الفصل الثـاني عشـر : في الإخـــــــلاص | 52 |
| الفصل الثالث عشر : في المحبـة والإشتيـاق | 75 |
| الفصل الرابع عشر : في ظهور التوحيد وإبطال التقييد | 117 |
| الفصل الخامس عشر : في أحوال القوم بعد فنائهم | 153 |
| الفصل السادس عشر : في أقوال القوم بعد فنائهم | 173 |
| الفصل السابع عشر : في أفعال القوم وثباتهم بعد فنائهم | 195 |
| الفصل الثامن عشر : في الخمـــول وفضـائلـــه | 214 |
| خـــاتمـــة الكـتـــاب | 234 |

# وصفة للمخطط الأصلي
# من كتاب المواد الغيثية

المؤمن لا يخلو من الدنيا من تعب لا انها دار عذاب وعمى وتعب وكيف يتخلص من ذلك وقد قال عليه الصلاة والسلام « الدنيا سجن المؤمن والايمان مقرون بالعمل فاذا جاء العمل الصالح « لا تستغرب وقوع الاكدار ما دمت في هذه الدار فانها ما برزت الا موجب وصفها ومستقر تعتها ثم قال رضي الله عنه :

( من اشتغل بالدنيا ابتلي بالذل جميعا )

اي من اشتغل بالدنيا اشتغالا كليا حتى اديرت الاخرة ابتلي بالذل جميعا حتى صار مملوكا لها مقهورا في حياتها بل اسيرها وقد فيل ان عبد الدنيا اسيرها وكيف بالاسير « لا جرم تعيس اسيرة مكوس الجبابرة قال عليه الصلاة والسلام « تعس عبد الدنيا تعس عبد الدرهم حيث كانت همته لا تجاوز ج عن الدرهم وكذا الخط الدينار الا وازداد في الانحطاط حتى تجد ان من ابتلي بمحبة الدنيا وجمع الاعراض الزائلة لو فيل له ان في جمع الغاذورات جائزة تمر بزة لصار يجمع في ذلك بدون ان يبالي بشيء ، جرم يفقد الدرهم حيث وجد يقطع النظر عن كل عارض فيه من خير ، والدنيا في نظر العارفين الذين تجاوزت عن زينتها افذر من الغاذورات واخبث من الخبائث وكفى بما وصفها به عليه الصلاة والسلام « الدنيا جيفة وطلابها كلاب » ومن حيث انها جيفة لا يحل لمن اطلع على امرها ان يفتخر اكثر مما يحتاج اليه في ذلك الوقت لان الميتة تؤكل عند الاضطرار « ج اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه في مقالته الخامسة من كتابه جتوح الغيب اذا رايت الدنيا في يد اربابها بزينتها واربابها كيلها وخدعها ومصايدها وسمومها القتالة مع اين حسن ظاهرها وضرورتها بباطنها وسرعة هلاكها وقتلها لمن مسها واغتر بها وركن اليها وعمل عملها وغرورها بالمها ونقص عهودها حكمت على من رآى انسانا على الفلاة على البراز باديا سوأته وعالمة راكمته فانك تغض البصر عن سوأته وقبح اتيك من راكمته وتنتهه جهدك اكن حسن الدنيا اذا رايتها غض بصرك عن زينتها وقبح افعالك عما يخرج من رواتج نتنها وانتنها تغتج منها ومن آجالها ويصل اليك

فتمسك منها وانت ممن قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى ﴾ وكلام النوع في ذم الدنيا لا ينافي بعض الاشتغال بل يندب الاشتغال الكلي وهو ميلان القلب وتعلقه بحبها والرغبة في جمعها واما السبب المطلوب لا لا ينافي وجود التوكل بل ما يزيد عزا لصاحبه ولا تنقص نصيبك من الدنيا فلقد :

تسبب ولا تحسب انك متسبب ... فحين السبب عز اذا رايت المسبب
فلا يشغلك عنه سبب وان جرى ... فاتركه لغيرك وله جاطلب

ثم قال رضي الله عنه :

٤ ﴿ من تزين بزائل فهو مغرور ﴾

لما دعا حسنوى الله زائل لا محالة نصحا الدنيا وزخرفها لقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ اصدق كلمة قالها الشاعر الا كل شئ ما خلا الله باطل ﴾ ومن تزين بالباطل فهو مغرور لانه زائل فاما الزاهد فيه جعل واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، وقد قيل من اراد ان يتعزز بعز لا يفنى فليعتز بعز يبقى . ومثل المتعزز بالزائل كمن رآى في منامه انه قائم على دراهم وبيده اثر ذلك المتاع فيحسبها ينتفع بها بيده فلا يجد شيئا لان الحالة التي كان عليها ليس لها وجود في الخارج انما هي اعتبار المعتبرين فكذلك المتزين بالدنيا من مال وجاه وعمارة ورئاسة وما اشبه ذلك اذا خرج الى الاخرة يجد يده جارغة الاكياس كعيبة الملك ليبلغ جاه وما هو ببالغه فيرى الحالة التي كان عليها مجرد متاع لقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ﴾ . اهل اليقظة العارفون بالله لم يتزينوا بالزائل انما يتزينون العلم بالله والخشية منه وقد قيل في مدحهم :

تاهت عن الكون من وجد ومن طرب ... فما استفز بهم ربح ولا ملل
لم تلههم زينة الدنيا وزخرفها ... ولا بقاؤها ولا فنى ولا عمل

فجعلت ذلك قدوة يا سعد جميع العالمين والمتعبدة الراشدين فيعيشوا الدنيا وزخرفها انما ناخذ منها ما نستعين به على الحاجة اليه لم يشتغلوا بها عن آخرتهم ثم قال رضي الله عنه :

١٦ ﴿ اطرح الدنيا على من اقبل عليها واقبل على مولاك ﴾

الناس في حب الدنيا سكارى وفي طلبها حيارى ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ قد اخذت قلوبهم واجسادهم بالسعي والجد والحرص ﴿ وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ هم لكم عمي فهم لا يعقلون ما سواها ولا يلتفتون لما عداها فاربوا من الله جزاء الجاد من الاسد